






المجلة العربية للتيار الماركسي الأممي

الحرية والشيوعية

مجلة فصلية

العدد الثامن سبتمبر 2021 ❋ 2 دولار ❋ السعر التضامني 5 دولار ❋ https://www.marxy.com

الماركسية ضد ما بعد الحداثة

ص 19

افتتاحية العدد

مباشرة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي قبل ثلاثين سنة (1991-2021)، انخرط المدافعون عن الرأسمالية، من لبراليين وإصلاحيين ومن لف لفهم، في موجة من الابتهاج والتأكيد على فشل الاشتراكية وموت الماركسية وسيادة اقتصاد السوق "الحرة" و"الديمقراطية" اللبرالية، الخ، حيث الجميع سيعيش في ازدهار وسلام في أفضل العوالم الممكنة، كل هذا تحت الرعاية الحنونة لشرطي العالم الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن ما الذي بقي الآن من كل تلك الأحلام؟ حسنا، يمكننا أن نقول باختصار: لم تبق هناك ذرة من ذلك التفاؤل والابتهاج، المزاج السائد اليوم بين منظري الرأسمالية هو التشاؤم والقلق. الرأسمالية دخلت أعمق أزماتها، والعالم لم يكن أبدا أكثر اضطرابا مما هو عليه الآن، اللاجئون بسبب الحروب والمجاعات والتغيرات المناخية: 82,4 مليون شخص، يشكل الأطفال بينهم نحو 42%. كما سجل الجوع المزمن ارتفاعا بلغ 10 ملايين نسمة في غضون سنة واحدة وما يقارب 60 مليون خلال خمس سنوات. هذا إضافة إلى أنه يوجد أصلا ملياري نسمة لا يحصلون بصورة منتظمة على طعام مغذي وكافي ومأمون. كل هذا في ظل فائض الانتاج والوفرة.

تدمير البيئة وصل مستويات مرعبة، حيث كانت القارة القطبية الجنوبية، بين عامي 2009 و 2012، تفقد نحو 230 مليار طن من الجليد سنويا، والوتيرة تزداد تسارعا، بل هناك تقارير تتحدث عن انقراض أكثر من 500 نوع من الكائنات الحية كل يوم، منها كائنات تنقرض حتى قبل أن يتم اكتشافها!! وقد كان هذا الصيف أحر صيف على الاطلاق، حرائق الغابات وانتشارها وصلا مستويات غير مسبوقة. من المسؤول؟ "الانسان هو المسؤول"، ستقول لك وسائل الاعلام الرأسمالية والبرامج الدراسية و"الخبراء"، الخ. وما هو الحل؟ الحل هو تغيير السلوكات اليومية مثل عدم إشعال أكثر من مصباح في بيتك أو التقليل من الاستحمام، الخ. هذا مثال عن الأجوبة التي نتلقاها عادة. لكن الواقع شيء آخر: تقول الاحصائيات 71% من الغازات المتسببة في التلوث وارتفاع حرارة الكوكب نتاج لأنشطة 100 شركة رأسمالية كبرى، هؤلاء هم المسؤولون الحقيقيون: الشركات والرأسماليين والحروب والجشع المحموم نحو تحقيق الربح والمزيد من الربح بدون أي اعتبارات أخرى.

وبالتالي فإنه ليس هناك من خيار أمام البشرية إلا القضاء على هذا النظام المجرم، نظام الاستغلال والفوضى لخدمة أقلية من الطفيليات من أصحاب الملايير، وبناء النظام الاشتراكي.

وفي وجه الدعاية المعادية للاشتراكية نقول إن ما سقط في الاتحاد السوفياتي قبل ثلاثين سنة ليس الاشتراكية ولا الماركسية، بل سقط نظام ستاليني بيروقراطي قام على إجهاض المحاولة الأولى لبناء الاشتراكية، وتسبب في تشويه صورة الاشتراكية في أعين العمال والشباب الباحثين عن بديل ثوري، وهذا ما شرحه الماركسيون منذ البداية.

إننا في التيار الماركسي الأممي نناضل من أجل الاشتراكية الثورية مثلما نظر لها ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي، اشتراكية قائمة على التخطيط العقلاني الديمقراطي من طرف المنتجين أنفسهم لخدمة مصالح أغلبية المجتمع في تناغم مع المنظومة البيئية.

أيها العمال والعاملات والشباب الثوري، اقرأوا مجلتنا وزعوها انشروا الفكر الماركسي في أوساطكم، وإذا كنتم تتفقون معنا في أفكارنا ومشروعنا الاشتراكي الثوري ندعوكم إلى الالتحاق بنا في هذا النضال المصيري العظيم !

للتواصل مع التيار الماركسي الأممي في الشرق الأوسط وشمال افريقيا، يمكنكم التواصل معنا على العناوين الاتية:

موقع ماركسي: contact@marxy.com

موقع الدفاع عن الماركسية: contact@marxist.com

مجلة الشيوعية والحرية: communismliberty@marxy.com

زوروا مواقعنا:

www.marxy.com

www.marxist.com/arabic.htm

وصفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي:

فايسبوك: https://www.facebook.com/marxycom

تويتر: https://twitter.com/marxycom

يوتيوب: https://www.youtube.com/channel

محتويات العدد

الذكرى العشرون لهجمات الحادي عشر شتنبر/أيلول



منذ عشرين عاماً شهدت الولايات المتحدة أكبر وأعنف هجوم دموي على أراضيها في التاريخ الحديث. لقي ما لا يقل عن 2.977 رجل وامرأة مصرعهم وأصيب ما لا يقل عن 25.000 بعد أن قامت عصابة من الإرهابيين بخطف مجموعة من الطائرات التجارية وجعلها تصطدم بالبرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي في نيويورك، مما ترك الشعب الأمريكي في حالة من الصدمة وعدم التصديق. في جميع أنحاء العالم، نظر ملايين الأشخاص برعب إلى المشاهد المدمرة لأشخاص يائسين محاصرين في الطوابق العليا من الأبراج، ففز بعضهم إلى حتفهم بدلاً من أن يحترقوا أحياء، قبل وقت قصير من انهيار الأبراج، تاركين الآلاف مدفونين تحت الأنقاض.

لكن ما أعقب هذه المأساة كان وصمة عار لذكرى كل الأبرياء الذين فقدوا حياتهم في ذلك اليوم. بالكاد استقر الغبار، وبالكاد جفت دماء الضحايا حتى بدأت النسور في التحليق. مستغلين مزاج الحزن الوطني، وأطلقوا حملة من الأكاذيب والدعاية الحربية من أجل دفع الشعب الأمريكي لقبول ذهاب الولايات المتحدة إلى الحرب من أجل الانتقام. تم تسريع الموافقة على قانون باتريوت وغيره من القوانين من طرف الكونجرس، مما حد بشدة من الحقوق المدنية ووسع بشكل كبير سلطات الدولة في المراقبة. كل هذا باسم "الحرب على الإرهاب" و "الدفاع عن الديمقراطية".

واحداً تلو الآخر، ولأيام متتالية، ظهر على شاشات التلفزيون أشخاص مثل الرئيس جورج دبليو بوش وديك تشيني وسلسلة لا تنتهي من المسؤولين الآخرين والقادة العسكريين و "النقاد" وهم يشجبون هجوم "قوى الإسلام الشريرة" على "الحرية". حث وزير التعليم السابق ويليام بينيت ومجموعة من المحافظين الجدد الآخرين الحكومة على "إعلان الحرب على الإسلام المتشدد"، مشيرين إلى أنه «يجب على الولايات المتحدة أن تتصرف كما لو كانت في حالة حرب، لأنها حرب بالفعل». دعا بينيت وعصابته إلى الحرب على العراق وإيران وسوريا وليبيا، رغم أن أياً من هذه الدول لم يكن لها أي علاقة على الإطلاق بالهجوم أو بتنظيم القاعدة الرجعي الذي يقف وراءه.

من بين الخاطفين التسعة عشر الذين نفذوا الهجمات، كان خمسة عشر منهم مواطنين سعوديين، ومع ذلك فإنه لم يؤتَ على أي ذكر للسعودية في هذه التصريحات العلنية. في الواقع، تم بذل كل جهد ممكن لحماية المصالح السعودية، إلى حد السماح لثماني طائرات مستأجرة بإبعاد السعوديين رفيعي المستوى بأمان عن البلاد، بدءًا من 13 أيلول/سبتمبر، على الرغم أن المجال الجوي الأمريكي كان ما يزال قيد الإغلاق. ومن بين أولئك الذين كانوا على متن الرحلات المغادرة، الأمير الراحل أحمد سلمان، الذي كان على صلة بالقاعدة والذي تم اكتشاف أنه كان على علم مسبق بهجوم قادم. في الوقت الذي كانت تتجهز فيه حملة عنصرية ومحمومة من المضايقات ضد الأشخاص من خلفيات شرق أوسطية، تم منح هذه الشخصيات المظلمة المرتبطة بواحد من أكثر الأنظمة رجعية في العالم بطاقات حقيقية "للخروج من السجن".

تشير جميع الأدلة المتعلقة بمصدر الهجمات إلى المملكة العربية السعودية، التي لطالما كانت الراعي الأول للأصولية الإسلامية في العالم. في الواقع، كان النظام الملكي السعودي، بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، هو الذي رعى تنظيم القاعدة في الأصل كجزء من التمرد الإسلامي ضد السوفييت في أفغانستان في الثمانينيات. الآن خرج وحش فرانكشتاين الإمبريالي عن السيطرة وأصبح مشكلة خطيرة للولايات المتحدة والغرب. لم تذكر قناة تلفزيونية واحدة هذه الحقيقة، على الرغم من قرعهم طبول "الحرب على الإرهاب" يوماً بعد يوم. الطبقة السائدة في الولايات المتحدة كانت تتطلع إلى إعادة فرض نفسها في جميع أنحاء العالم وجعل بعض أعدائها عبرة للآخرين. لقد كانت فكرة أنها عززت مثل هؤلاء -الإسلاميين- الأعداء في البداية تفاصيل ثانوية.

الكبرياء

غالباً ما يعتقد بعض العقول السطحية في اليسار أن الطبقة السائدة معصومة من الخطأ، وأن جميع قراراتها هي جزء من خطة كبرى تم وضعها بأدق التفاصيل في غرف السلطة. لكن هذا ليس هو الحال على الإطلاق. تلعب الأخطاء والحوادث دوراً في التاريخ. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينات، برزت الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة على المسرح العالمي. الآن يتم إظهار العكس من قبل عصابة صغيرة من المتعصبين الدينيين الرجعيين. هذا لم يكن شيئاً يمكن أن تتسامح معه.

ظهر العقيد ديفيد هانت على قناة فوكس نيوز مساء 11 أيلول/ سبتمبر، وعبر بإيجاز عن هذا الموقف عندما أخبر بيل أورايلي أن الوقت قد حان للولايات المتحدة "لإطلاق العنان لكلاب الحرب". كانت الكلاب في قمة المؤسسة العسكرية تتشوق لإطلاق سراحها من أجل استعادة كبريائها. وبسبب اقتران المملكة العربية السعودية، المصدر الحقيقي للهجوم، بمصالحهم، استقروا على أفغانستان، متخيلين أنها هدف سهل لعرض وحشي لانتقام الإمبريالية الأمريكية. ولكن كما يقول الكتاب المقدس "يأتي الكبرياء قبل السقوط".

بمجرد اتخاذ القرار ثبت أنه منذر بالسوء. كانت الحرب على أفغانستان مغامرة محكوماً عليها بالفشل. عشية سقوط كابول في أيدي القوات الأمريكية في تشرين الثاني/نوفمبر 2001، كتب آلان وودز:

«مرة أخرى، نرى كيف أن الأمريكيين لم يفكروا بأي شيء حتى النهاية. لقد تخيلوا أنه بمجرد طرد طالبان من كابول، سيتم حل المشكلة. لكن هذا

ليس هو الحال على الإطلاق. فقدت طالبان قبضتها على السلطة، لكن لم تفقد قدرتها على شن الحرب. إنهم معتادون على خوض حرب عصابات في الجبال. لقد فعلوها من قبل ويمكنهم فعلها مرة أخرى. يفتح المجال أمام حملة حرب عصابات طويلة يمكن أن تستمر لسنوات. كان الجزء الأول من حملة حرب الحلفاء هو الجزء السهل. الجزء الثاني لن يكون بنفس السهولة.

إذا كان الهدف من هذه العملية هو مكافحة الإرهاب، فسوف يحققون العكس. قبل هذه الأحداث، كان بإمكان الإمبرياليين الحفاظ على مسافة آمنة نسبياً بينهم وبين الاضطرابات والحروب في ذلك الجزء من العالم، لكنهم الآن متورطون فيها بشكل كامل. من خلال أفعالهما منذ 11 أيلول/سبتمبر، جرّت الولايات المتحدة وبريطانيا نفسيهما إلى مستنقع، سيكون من الصعب أن يخرجوا منه».

هذه الكلمات صحيحة اليوم مثلما كانت صحيحة عندما كتبت آنذاك. لم يكتفوا بالنتائج في أفغانستان، قرر بوش وتشيني وعصابتهما، وخلفهم الكلب البريطاني المخلص، فتح جبهة جديدة في العراق، بدعوى أن العراق كان يأوي الأصوليين الإسلاميين ويمتلك أسلحة الدمار الشامل. بالطبع، كانت هذه أكاذيب صارخة. لم يكن هناك وجود ذو قيمة للأصولية الإسلامية في العراق إلا بعد وصول الإمبرياليين. كما لم يمتلك نظام صدام حسين أي أسلحة دمار شامل. لقد كان الهدف الحقيقي للحرب هو الوصول إلى النفط العراقي، وزيادة الضغط على النظام الإيراني، والتوغل بشكل أعمق في المناطق التي كانت تقع في السابق تحت النفوذ السوفيتي.

اعتقد الأمريكيون أنها ستكون مهمة سريعة. ومرة أخرى، أخطأوا التقدير. من خلال تدمير الجيش العراقي، الذي استُخدم لإبقاء إيران تحت السيطرة على مدى عقدين من الزمن، لم يزعزعوا استقرار العراق فحسب، بل المنطقة بأسرها. فمن ناحية، عزز الغزو نفوذ الإيرانيين الذين بنوا قاعدة دعم قوية بين الأغلبية الشيعية في العراق، ومن ناحية أخرى، أوجد أساساً لصعود الأصولية الإسلامية السنية، التي استندت إليها الولايات المتحدة نفسها إلى حد ما لمواجهة النفوذ الإيراني، والنتيجة هي ما رأيناه مع صعود داعش في عام 2014.

في الوقت الحاضر، يصطف السياسيون ومن يسمون بالخبراء أمام وسائل الإعلام الغربية للتنديد بالوضع الذي تواجهه النساء الأفغانيات بعد استيلاء طالبان على السلطة. هذه هي دموع التماسيح المنافقة. لا يوجد احتجاج على حقوق النساء في السعودية. أفغانستان الواقعة تحت الاحتلال الأمريكي كانت بعيدة كل البعد عن الجنة على الأرض كما صُورت. وفقاً لـ (Airwars)، قتلت ضربات الطائرات الأمريكية بدون طيار منذ 11 أيلول/سبتمبر ما لا يقل عن 22.000 مدني – وربما يصل العدد إلى 48.000. ويقدر تقرير صدر عام 2015 من قبل أطباء من



أجل المسؤولية الاجتماعية أن الحملات في العراق وأفغانستان وباكستان أدت إلى 1,3 مليون حالة وفاة! ويخلص التقرير إلى أن «هذا مجرد تقدير متوسط. بينما العدد الإجمالي للوفيات ... يمكن أن يزيد عن 2 مليون، في حين أن يقل الرقم عن مليون فهو أمر غير مرجح».

في العراق، نفس الأشخاص "المحبين للحرية" الذين كانوا يصرخون بسبب أسلحة الدمار الشامل المفترضة لم يترددوا في استخدام الأسلحة الكيماوية مثل الفوسفور الأبيض في الأحياء المدنية في الفلوجة. وفي نفس الوقت، كانت السلطات التي أنشأتها الولايات المتحدة، في كل من العراق وأفغانستان، متكونة من العصابات والطائفيين الأكثر فساداً ورجعية. الإمبريالية الأمريكية لم تجلب الديمقراطية وحقوق الإنسان إلى هذه البلدان. لقد جلبت الطائفية والفساد والموت والدمار بمستويات غير مسبوقة.

تحول المزاج

بالرغم من أنه كانت هناك احتجاجات كبيرة مناهضة للحرب في الولايات المتحدة منذ البداية، إلا أنه قد تم دفع الجماهير الأمريكية في البداية لقبول الحروب بعد صدمة هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. لكن سرعان ما تغير هذا المزاج. وفقاً لمؤسسة غالوب، بلغ التأييد لحرب أفغانستان أوجه في عام 2002، حيث وصل إلى 93%. لكن منذ ذلك الحين، بدأت الأرقام في التراجع. بحلول عام 2019، أي بعد 18 عاماً من القتال الذي كلف أرواح الآلاف من الأمريكيين وأكثر من تريليون دولار، قال 6 من كل 10 أمريكيين إنهم ضد القتال في أفغانستان. يهتم العمال الأمريكيون اليوم بتحسين ظروفهم الخاصة أكثر من دفع فاتورة الحروب التي لا تنتهي في الخارج. كان لهذا التغيير في المزاج عواقب سياسية مهمة.

في عام 2012، لم تتم الموافقة على اقتراح إدارة أوباما قصف سوريا من قبل الكونجرس، حيث أيد التدخل 9% فقط من سكان الولايات المتحدة. وفي عام 2016، عندما تم انتخاب دونالد ترامب رئيساً، كان أحد وعوده الانتخابية الأكثر شعبية هو إخراج الولايات المتحدة من الحروب في الشرق الأوسط. أعاقت معارضة الحرب بشدة قدرة الإمبريالية الأمريكية على المناورة بالطريقة التي اعتادت عليها. فأي حملة عسكرية كبيرة تشمل القوات البرية سيكون لها تكلفة سياسية كبيرة على أي إدارة، وبالتالي سوف يتم استبعادها. يضاف إلى ذلك التكلفة الاقتصادية للتدخلات العسكرية. بحلول عام 2019، قدرت التكلفة الإجمالية للتدخلات الأمريكية في الشرق الأوسط بنحو 6,4 تريليون دولار – وهو عائق إضافي أمام الرغبة في الشروع في مغامرات عسكرية جديدة.

أزمة الإمبريالية

نتيجة الحربين في العراق وأفغانستان كانت واضحة منذ البداية، لكن إدارتي أوباما وترامب استمرتا في تأجيل القرار النهائي، غير راغبتين في قبول إذلال الهزيمة. عاجلاً أم آجلاً، كان لا بد من الاستسلام. لقد تم انتقاد جو بايدن بحق بسبب تنفيذه للانسحاب من أفغانستان في الشهر الماضي. كان التقدم السريع لطالبان والإخلاء الفوضوي لكابول نتيجة مباشرة لعدم كفاءته وكفاءة زملائه في قيادة الجيش. لكن بغض النظر عن طريقة التنفيذ، كانت هزيمة الولايات المتحدة مؤكدة منذ سنوات عديدة. كان الانسحاب مجرد الاعتراف النهائي بهذه الحقيقة. سيكون لهذا عواقب مهمة.

العراق هو التالي في الخط. سواء من خلال انسحاب فوضوي كما حدث في أفغانستان أو كجزء من صفقة مع إيران، فإن الوجود الأمريكي في العراق على الأساس الحالي لا يمكن أن يستمر. لكن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد. إن رؤية الآلة العسكرية



الأمريكيـة تتعطـل في مقابـل مجموعـة مـن المتعصبيـن في طالبـان يحملـون الكلاشـينكوف سـوف يشـجع البلـدان الأخـرى عـلى تحـدي الهيمنـة الأمريكيـة، مثـل الصـين وروسـيا وحتـى الأنظمـة الأضعـف مثـل إيـران. والنتيجـة هـي عكـس مـا كان يهـدف إليـه الجـنرالات المتحمسـون عندمـا شرعـوا في إظهـار قوتهـم بعـد 11 أيلول/سـبتمبر. بـدلاً مـن اسـتعراض القـوة العسـكرية الأمريكيـة، تـم الكشـف عـن عـدم كفـاءة الإمبرياليـة الأمريكيـة وحدودهـا وضعفهـا ليراهـا العـالم بـأسره. سـيكون لـدى حلفـاء الولايـات المتحـدة حـول العـالم الآن شـكوك جديـة حـول مـدى اعتمادهـم عـلى واشـنطن للحصـول عـلى الدعـم.

لا تـزال الإمبرياليـة الأمريكيـة أقـوى قـوة عسـكرية واقتصاديـة عـلى هـذا الكوكـب. ومـع ذلـك، وكـما أوضحنـا، فـإن قدرتهـا عـلى المنـاورة قـد تقلصـت بشـدة. ونتيجـة لذلـك، فـإن أي حمـلات عسـكرية أمريكيـة كـبرى مسـتبعدة في الوقـت الحـالي. وبـدلاً مـن ذلـك، سـيكون هنـاك ميـل أكـثر إلى اللجـوء للحـرب الاقتصاديـة والعمليـات الخاصـة المحـدودة والحمـلات بالوكالـة. وهـذا بالطبـع لـن يجعـل العـالم مكانـاً أكـثر أمانـاً، بالعكـس سـيؤدي ذلـك إلى زيـادة عـدم الاسـتقرار والتوتـر في العلاقـات العالميـة. مثـل السـكير بعـد ليلـة مـن الإفـراط مـن الـشرب، فـإن الطبقـة السـائدة في الولايـات المتحـدة مجـبرة الآن عـلى أن تدفـع ثمـن العمليـات التـي بدأتهـا.

أزمة النظام الأمريكي

لا تقتـصر عواقـب هـذه الأحـداث عـلى العلاقـات العالميـة، ولكـن أيضـاً عـلى العلاقـة بـين الطبقـات داخـل الولايـات المتحـدة. شـارك مـا يقـرب مـن 800 ألـف جنـدي أمريـكي في الحـرب عـلى أفغانسـتان. عـاد غالبيـة هـؤلاء إلى منازلهـم وهـم يعانـون مـن نـدوب جسـدية وعقليـة عميقـة – هـذا إذا عـادوا اصـلاً. في مقابلـة مـع "Vice"، قـدم جنـدي سـابق مـن مشـاة البحريـة، قاتـل في بعـض مـن أصعـب المعـارك في أفغانسـتان، لمحـة مثـيرة للاهتـمام عـن الحالـة المزاجيـة بـين الكثيريـن في هـذه الشريحـة. عندمـا سـأله المحـاور عـما إذا كان يعتقـد أن الحـرب كانـت عبثيـة، أجـاب:

«نعـم أعتقـد ذلـك. المـرء يعـرف كشـخص نـزف في تلـك الحـرب مثـل الجميـع... الرجـال الذيـن لم يعـودوا إلى الوطـن... لمـاذا؟ لمـاذا لم يعـودوا إلى الوطـن؟ كانـوا صغـار السـن تـتراوح أعمارهـم بـين 19 و 20 عامـاً لم يعـودوا إلى الوطـن أبـداً. لم يبـدأوا حياتهـم و تخلينـا عنهـم. لقـد تخلينـا عنهـم. وهـذا مـؤلم».

يتخلـل الشـعور بالخيانـة كل كلمـة في هـذه الإجابـة. ليـس مـن الصعـب تخيـل الغضـب الـذي يعـم الكثـير مـن الأمريكيـين العاديـين الذيـن دعمـوا الحـروب في أفغانسـتان والعـراق وهـم يدركـون أنهـم قـد خدعـوا. بعـد عشريـن عامـاً مـن الحـرب، لم تـؤت أي مـن الوعـود التـي قُطعـت لهـم ثمارهـا. فبـدلاً مـن عـالم أكـثر أمنـاً وديمقراطيـة، تـرك سـعار الإمبرياليـة الأمريكيـة وراءه أثـراً مـن الهمجيـة والبـؤس.

لم يتـم الانتصـار عـلى الأصوليـة الإسـلامية – وبـدلاً مـن ذلـك، وجـدت، بمسـاعدة الولايـات المتحـدة، مـلاذات آمنـة لم تكـن لهـا موطـئ قـدم فيهـا مـن قبـل في العـراق وسـوريا وليبيـا. العـراق وأفغانسـتان ليسـا أقـرب إلى الديمقراطيـة مـما كانـا عليـه مـن قبـل. كل الحديـث عـن "نظـام عالمـي جديـد" يقـوم عـلى مـا يسـمى بالقيـم الأمريكيـة الديمقراطيـة، "بنـاء الأمـة"، "الحـرب عـلى الإرهـاب" والاسـتثنائية الأمريكيـة ثبـت أنـه ليـس سـوى كلام فـارغ. هـذه مشـاكل خطـيرة للمؤسسـة الحاكمـة، التـي ينظـر إليهـا الأمريكيـون بشـكل متزايـد عـلى أنهـا مجموعـة غـير كفـؤة مـن الكذابـين والانتهازيـين والدجالـين. دق كريسـتوفر بريبـل مـن معهـد كاتـو المحافـظ ناقـوس الخطـر، في تصريحـه لموقـع (Net Assessment podcast):

«لدينـا هـذا النمـط مـن التضليـل، الـكاذب وفي حـالات قليلـة كـذب صريـح [في] البيانـات المتعلقـة بفعاليـة قـوات الأمـن الأفغانيـة... كانـت فجـوة المصداقيـة هـي المشـكلة في حقبـة فيتنـام حيـث قـال مسـؤولون حكوميـون أمريكيـون أشـياء عـن تقـدم تلـك الحـرب، عـلى سـبيل المثـال حـول ديمومـة حكومـة جنـوب فيتنـام أو الفعاليـة القتاليـة لجيـش جمهوريـة فيتنـام، التـي تبـين أنهـا غـير صحيحـة. أنتـج ذلـك أزمـة في المصداقيـة. وبالتـالي لم يكـن المسـؤولون الأمريكيـون موثوقـين لقـول الحقيقـة... نقطتـي هـي إن مشـكلة المصداقيـة هـذه لا تقتـصر عـلى الحـروب الخارجيـة. لدينـا انهيـار في الثقـة في مؤسسـات هـذا البلـد في الوقـت الحـالي. ملايـين الأمريكيـين غـير قادريـن عـلى التمييـز بـين الحقيقـة والخيـال... هنـاك مشـكلة مصداقيـة وهـي تـزداد سـوءًا. الشـعب الأمريـكي لا يصـدق المسـؤولين الحكوميـين».

هـذه كلـمات تحذيريـة صـادرة عـن أحـد الاسـتراتيجيين الأكـثر ذكاءً للرأسـمالية الأمريكيـة. في حـين أن مأسـاة 11 أيلول/سـبتمبر 2001 والحـروب اللاحقـة في العـراق وأفغانسـتان عـززت في البدايـة مـزاج حـب الوطـن والوحـدة الوطنيـة، فـإن الهزائـم في تلـك الحـروب زادت مـن مـزاج الكراهيـة والشـك تجـاه الطبقـة السـائدة. إن أزمـة الإمبرياليـة الأمريكيـة في الخـارج هـي أيضـاً أزمـة للرأسـمالية الأمريكيـة في الداخـل. جنبـاً إلى جنـب مـع المعالجـة الإجراميـة لجائحـة كوفيـد19- وانخفـاض مسـتويات المعيشـة وعـدم اليقـين الاقتصـادي عـلى نطـاق واسـع وآفـة العنصريـة، كل هـذه العوامـل وغيرهـا غـذت العمليـة الجزيئيـة للثـورة التـي تحـدث تحـت السـطح. تعـود الدجاجـات إلى خمهـا مـن أجـل الإمبرياليـة الأمريكيـة. يتـم إعـداد الظـروف لـكي تدفـع الطبقـة الرأسـمالية الأمريكيـة ثمـن جرائمهـا – ليـس مـن قبـل المجانـين الإسـلاميين الذيـن رعتهـم هـي بنفسـها، ولكـن مـن قبـل الجماهـير الثوريـة.

حميد علي زاده
11 شتنبر/أيلول 2021

أفغانستان: خيانة الإمبريالية الأمريكية لحلفائها



لقد انتهت أطول حرب خاضتها الولايات المتحدة بإذلال وخزي بالغين للإمبريالية الأمريكية. فبعد عشرين عاما على غزو أفغانستان، تعرضت أكبر قوة عسكرية عرفها العالم لهزيمة كاملة على يد عصابة من المتعصبين الدينيين البدائيين.

يمثل سقوط كابول نهاية هجوم خاطف استمر سبعة أيام سيطرت خلاله قوات طالبان على منطقة تضم أكثر من نصف البلاد، بما في ذلك المدن الأكثر اكتظاظًا. وهم الآن يسيطرون على كل مناطق البلاد.

لم يمر وقت طويل منذ أن كان الرئيس الأمريكي، جو بايدن، قد أكد للجميع أن طالبان لن تستولي على كابول؛ وأنها لن تسيطر على البلد كله؛ وأنه ستكون هناك حكومة مصالحة وطنية على النحو المتفق عليه مع طالبان؛ وهلم جرا.

وقبل شهر كان قد أعلن بثقة أن «احتمال أن تسيطر طالبان بشكل كامل على البلاد وتحكمها غير مرجح إلى حد كبير. لقد زودنا شركائنا الأفغان بجميع الوسائل، اسمحوا لي أن أؤكد: جميع الوسائل والتدريب ومعدات أي جيش حديث».

والآن انفضحت كل هذه الوعود على أنها مجرد كلام فارغ. لم تكن القوات الأمريكية حتى قد انتهت من انسحابها المخطط له، عندما شنت حركة طالبان انقضاضها. وقد أدت سرعة هجومهم إلى إثارة حالة من الذعر في حكومة كابول المتهاوية أصلا.

ووفقًا لمسؤولين أمريكيين فقد كان من المفترض أن يتولى النظام الأفغاني وجيشه وشرطته إدارة البلاد اثر انسحاب الولايات المتحدة. لكن النظام غير موجود. والجيش الأفغاني، الذي تم تدريبه وتسليحه على يد الجيش الأمريكي، ويتكون من 300.000 جندي، سرعان ما تلاشى في مواجهة الإسلاميين ضعيفي التسليح، والذين، حتى بأكثر التقديرات سخاء، لا يضمون أكثر من 75.000 مقاتل بدوام كامل.

وخلال الأسبوع الماضي، كان هناك تناقض حاد بين الخطب الرنانة لقادة الجيش والسياسيين، الذين تعهدوا جميعا بالقتال حتى النهاية، وبين إفلاسهم وفشلهم الكامل في تنظيم أي مقاومة عندما دقت ساعة الحقيقة. ففي جميع المدن، الواحدة تلو الأخرى، قام نفس هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يستعرضون عضلاتهم قبل أيام فقط، بتسليم السلطة إلى طالبان وهربوا من البلاد، أو، في بعض الحالات، قاموا بتبديل مواقفهم وعرضوا خدماتهم على النظام الجديد.

سرعان ما انحدر الجيش الأفغاني إلى حالة من التفكك. سقطت المدن، الواحدة تلو الأخرى، حيث استسلم الجنود الحكوميون بأعداد كبيرة، وسلموا أسلحتهم إلى طالبان مقابل المال.

ومع اقتراب الحركة من كابول، أعلنت الحكومة أنها ستتفاوض على انتقال سلمي للسلطة يضمن الحقوق الأساسية للأفغان. حتى أن الرئيس أشرف غني أعلن أنه تم التوصل إلى اتفاق لتشكيل حكومة انتقالية تتألف من ممثلين عن طالبان والنظام القديم.

لكن قبل الإعلان عن أي تفاصيل حول هذه الصفقة، وصلت أنباء عن فرار غني من البلاد. انهار نظام أشرف غني الفاسد والرجعي مثل بيت من ورق. ألقى غني خطابا تلفزيونيا أخيرا لمواطنيه، حيث حثهم على القتال حتى النهاية، ثم عمل على حزم حقائبه على الفور وهرب في طائرة خاصة إلى طاجيكستان، حيث يمكنه ضمان منفى مريح، بينما يواجه شعبه مرة أخرى كل مباهج حكم طالبان.

شوهدت نفس الأحداث تتكرر في جميع أنحاء البلاد. فبينما كان يتم تنويم الجماهير بإحساس زائف بالأمن من خلال البيانات الرسمية، كانت الاتفاقات تعقد خلف الكواليس بين مسؤولي النظام القديم وبين طالبان. وقد تكهن البعض بأن الإمبرياليين الأمريكيين قد شاركوا بدورهم في عقد مثل تلك الصفقات، في عملية تهدف لحفظ ماء الوجه لتأمين خروج غير دموي من كابول ومنع المزيد من الإذلال.

وبينما كان أمثال غني وزمرته منشغلين في الاعتناء بأنفسهم، كانت أسراب من مقاتلي طالبان تدخل العاصمة دون أي مقاومة. والآن ها هي الجماهير الأفغانية، التي عانت الكثير على يد الإمبريالية الأمريكية، تستعد لعودة الحكم الثيوقراطي. بعثت عودة الأصوليين الإسلاميين الرعب في قلوب الشعب الأفغاني. فمع اقتراب قوات المتمردين من كابول انتشر الذعر في العاصمة.

بينما تُرك العمال والفقراء والنساء وكل من يعانون على أيدي طالبان لمواجهة مصيرهم الخاص، كان الأثرياء مشغولين بإنقاذ أنفسهم. وشوهد العشرات من أفراد النخبة وهم يفرون من البلاد. بينما غيّر آخرون ولاءهم وانضموا إلى طالبان. وبحسب التقارير فقد فر وزير الدفاع، بسم الله محمدي، مع أبنائه إلى الإمارات. في حين صرح همايون همايون، نائب رئيس مجلس النواب السابق والحليف المقرب من غني سابقا، أن طالبان عينته رئيسا لشرطة كابول.

وخلال الساعات التي كانت فيها كابول تسقط، شوهد وفد يضم أمراء حرب ورجال أعمال من شمال البلاد، الذي كان يشكل أقوى قاعدة للنظام القديم، في رحلة إلى باكستان، التي تعتبر الداعم المالي الرئيسي لطالبان. من المفترض أن يكون الغرض من زيارتهم هو التفاوض حول دورهم المستقبلي في ظل النظام الجديد. كل ذلك بينما يُترك الفقراء والمضطهَدون ليلاقوا مصيرهم.

على الرغم من التصريحات الرسمية لحركة طالبان بأنها ستحترم حقوق المرأة وستمنح العفو لكل من لا يقاومها، فإن التقارير التي بدأت تطفو على السطح تتحدث عن عمليات قتل ضد مثقفين ونساء. في هرات يوم أمس تم طرد الطالبات من الجامعة وطُلب من موظفات البنك العودة إلى منازلهن. وفي قندهار وردت تقارير عن شن عمليات تفتيش من منزل إلى منزل عن صحفيين عملوا مع وسائل إعلام أجنبية. وسيستمر هذا الإرهاب في الأيام والأسابيع المقبلة فيما تحاول طالبان ترسيخ حكمها.



يعـرض المتحدثـون باسـم طالبـان صـورة عقلانيـة لطيفـة أمـام كامـيرات التلفزيـون. يقولـون: "نحـن لسـنا كـما كنـا مـن قبـل". "لقـد تعلمنـا الكثـير مـن الـدروس"، وهلـم جـرا. لكنـه لا يمكـن الثقـة عـلى الإطـلاق في هـذه التصريحـات. إن هدفهـم الوحيـد هـو تهدئـة أعصـاب "المجتمـع الـدولي"، وبالتـالي، كـما يأملـون، التقليـل مـن خطـر التدخـل العسـكري الأجنبـي.

لكـن تجـدد التدخـل الأجنبـي احتـمال مسـتبعد جـدا. لقـد اتخـذ جـو بايـدن اختيـاره ولا مجـال للعـودة. سـوف ينتهـز خصومـه السياسـيون الفرصـة لتشـويه اسـمه بكونـه "الرجـل الـذي خـان الأفغـان". وقـد احتـج، عبثًـا، عـلى أن سـلفه، دونالـد ترامـب، هـو الـذي اتخـذ القـرار المصـيري بسـحب القـوات الأمريكيـة مـن أفغانسـتان.

هـذا لـن يـرضي أحـدا. وهـو عـلى أي حـال لا يغـير شـيئا، حيـث أنـه لا الجمهوريـون ولا أي شـخص آخـر يقـترح بشـكل جـدي تنظيـم تدخـل عسـكري جديـد. صحيـح أنـه خـلال أسـبوع واحـد تضخـم عـدد القـوات الأمريكيـة المنتـشرة في أفغانسـتان مـن ألـف إلى ثلاثـة آلاف، ثـم إلى خمسـة آلاف، ثـم سـتة آلاف.

لكـن الهـدف الوحيـد مـن وراء إرسـال القـوات إلى كابـول ليـس محاربـة طالبـان، بـل تسـهيل إجـلاء مـا يصـل إلى 20 ألـف مـن المواطنـين والموظفـين الأمريكيـين المحاصريـن في كابـول. لكـن حتـى ذلـك اتضـح أنـه مهمـة صعبـة. فمـع مـرور الوقـت أصبـح مـن الواضـح أن الولايـات المتحـدة لـن تفعـل الكثـير عـلى الإطـلاق لإنقـاذ معظـم أولئـك الذيـن مـن المحتمـل أن يكونـوا مسـتهدفين مـن قبـل قمـع طالبـان.

أغـرق آلاف الأفغـان القنصليـات الأمريكيـة لتأمـين تأشـيرة سـفر ورحلـة إلى خـارج البـلاد، وهـي الجهـود التـي بـاءت بالنسـبة للغالبيـة العظمـى بالفشـل. ومنـذ يـوم السـبت اكتـظ مطـار كابـول بالنـاس اليائسـين الذيـن حاولـوا مغـادرة البـلاد في اللحظـة الأخـيرة قبـل أن تتـولى طالبـان زمـام الأمـور.

وحـاول آخـرون المغـادرة بالسـيارات مـما أدى إلى سـد الطـرق وتوقـف تـام لحركـة المـرور في المدينـة. قالـت طالبـان إنهـا ستسـمح للنـاس بمغـادرة كابـول، لكـن أيـن هـو المـكان الـذي يمكنهـم أن يكونـوا فيـه بأمـان؟ إن الفكـرة التـي ألمحـت إليهـا الإدارة الأمريكيـة، بأنـه يمكـن التحكـم في إدارة طالبـان بطريقـة مـا عـن طريـق المفاوضـات، قـد أثبتـت بالفعـل أنهـا مجـرد وهـم سـاذج ميـؤوس منـه.

وسـط مشـاهد الفـوضى والذعـر في المطـار الـدولي، حـاول آلاف الأفغـان اليائسـين الفـرار قبـل أن تنتهـي الولايـات المتحـدة مـن إجـلاء جميـع مواطنيهـا المدنيـين والعسـكريين. في هـذه المرحلـة سـيترك الأمريكيـون "أصدقاءهـم" و"حلفاءهـم" الأفغـان لمصيرهـم في عمـل مـن أعـمال الخيانـة الكلبيـة والجـبن.

كان هـذا بالضبـط هـو مـا لم يكـن مـن المفـترض أن يحـدث. كان مـن المفـترض أن يكـون الانسـحاب الأمريـكي مـن أفغانسـتان عمـلا منظـما. صرح بايـدن إنـه لـن يكـون هنـاك تكـرار لعمليـة الإخـلاء التـي قامـت بهـا الولايـات المتحـدة لسـايغون في عـام 1975، تلـك الكارثـة المهينـة التـي شـكلت نهايـة حـرب فيتنـام:

«طالبـان ليسـت الجيـش الفيتنامـي الشـمالي. إنهـم ليسـوا كذلـك، لا يمكـن مقارنتهـم بالجيـش الفيتنامـي الشـمالي مـن حيـث القـدرة. ولـن يكـون هنـاك أي ظـرف حيـث نـرى أشـخاصاً يُنقلـون مـن عـلى سـطح السـفارة الأمريكيـة في أفغانسـتان. إنـه غـير قابـل للمقارنـة عـلى الإطـلاق».

لكـن في الواقـع مـا نـراه هـو بالضبـط إعـادة عـرض لسـيناريو سـايغون، بمـا في ذلـك مشـاهد طائـرات الهليكوبـتر العسـكرية التـي تنقـل الأشـخاص جـوا مـن السـفارة الأمريكيـة. إذا كان هنـاك مـن اختـلاف فهـو أن السـيناريو الحـالي أسـوء. لقـد وصلـت الفـوضى إلى درجـة أن حركـة طالبـان كانـت في معظـم الحـالات تسـير مـن منطقـة إلى أخـرى دون أن تلقـى أي معارضـة تقريبـا.

عندمـا أعلـن بايـدن الانسـحاب الأمريـكي مـن أفغانسـتان، قبـل أشـهر فقـط، وعـد بأنـه سـيضمن بقـاء النظـام الأفغـاني، وأنـه سـيمنع عـودة ظهـور الحكـم الإسـلامي الصريـح، وأنـه سـيحمي حقـوق النسـاء. كان سـيحقق ذلـك، بطريقـة مـا، بينـما كان يتـم إبعـاد القـوات إلى مسـافة آمنـة. لكـن سرعـان مـا أصبـح واضحـا أن الولايـات المتحـدة بالـكاد تسـتطيع ضـمان سـلامة أفرادهـا، فبالأحـرى سـلامة الشـعب الأفغـاني.

حتـى العديـد مـن أولئـك الذيـن لديهـم المـوارد الماليـة لتأمـين تذاكـر السـفر إلى الخـارج عـن طريـق الجـو لم يتمكنـوا مـن ركـوب طائراتهـم. لقـد أغلـق الجيـش الأمريـكي مطـار كابـول لإفسـاح المجـال لرحلاتـه الجويـة. وكان ذلـك بالطبـع مصـير قلـة مـن الأثريـاء وأفـراد الطبقـة الوسـطى. معظـم الأفغـان لا يسـتطيعون تحمـل حتـى تكلفـة سـيارة أجـرة إلى المطـار. وبالنسـبة لهـم ليـس هنـاك الكثـير ليفعلـوه الآن، سـوى الانتظـار والاسـتعداد لتحمـل مسـتويات جديـدة أكـثر قسـوة مـن المعانـاة.

وفي النهايـة قامـت الحشـود الضخمـة التـي تجمعـت في المطـار منـذ سـيطرة طالبـان عـلى العاصمـة، بالسـيطرة عـلى مـدارج الطائـرات في محـاولات يائسـة للهـروب مـن البـلاد. لقـد عرفـوا الآن أن حياتهـم صـارت في خطـر لمجـرد رؤيتهـم وهـم يعـودون إلى ديارهـم

من المطار. لكن وبدلا من أن يتم الترحيب بهم، أوردت التقارير أن القوات الأمريكية أطلقت النار في الهواء لتفريق حشود الأشخاص الذين كانوا يحاولون شق طريقهم بالقوة إلى الطائرات. يوم الاثنين قتل جنود أميركيون رجلين، بينما لقي ثلاثة حتفهم بعد سقوطهم من أسفل طائرة حاولوا التشبث بها بعد وقت قصير من إقلاعها. هذا مؤشر على كيف تنظر الإمبريالية الأمريكية إلى "حلفائها"، فهم بمثابة وقود للمدافع طالما أنهم مفيدون. ثم يتم التخلص منهم مثل القمامة بمجرد أن تنتهي مدة صلاحيتهم.



كيف انتصرت طالبان؟

سارعت إدارة بايدن إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الشعب الأفغاني، داعية إياه إلى "القتال من أجل نفسه". لكن أسلوب تنظيمه للانسحاب الأمريكي أدى إلى تغيير كبير في ميزان القوى لصالح طالبان. فمن خلال تحديده لموعد الانسحاب الأمريكي الكامل قبل أشهر، أعطى لطالبان الضوء الأخضر للهجوم، وكذلك كل الوقت الذي احتاجوه للتحضير للهجوم النهائي.

لكن الخيانة ذهبت أعمق بكثير من هذا. ففي مفاوضات فبراير، رضخت الولايات المتحدة لكل مطلب قدمته لها طالبان، دون الحصول على أي تنازلات في المقابل. وقد أدى ذلك في حد ذاته إلى رفع الروح المعنوية للإسلاميين، بينما أرسل إشارة واضحة إلى الجيش الأفغاني بأن الولايات المتحدة كانت تسحب البساط من تحت قدميه. بدأ تأثير الدومينو حيث سارع القادة والسياسيون الأفغان لعقد صفقات مع طالبان.

بعد ذلك، وعلى الرغم من التحذيرات العديدة من البنتاغون، فشل بايدن في تسريع خطط الانسحاب الأمريكية، متوهما أن هناك شهورا قبل أن يصل الصراع إلى نهايته. زاد هذا من تضخيم الشعور بالفوضى، لصالح الجهاديين. وفي كل منعطف أدى عدم كفاءة الولايات المتحدة وعدم استعدادها، واستعدادها للتنازل لكل مطالب طالبان، إلى تصعيد التفكك السريع للجيش الأفغاني وجهاز الدولة.

لقد كانت الدولة الأفغانية على الدوام مجرد دمية في يد الإمبريالية الأمريكية. لقد كانت أداة للاحتلال الأمريكي لأفغانستان، الذي تسبب في مقتل الآلاف وفي بؤس ومعاناة لا حدود لها للجماهير. لذلك فقد كان جهازا قمعيا مكروها تماما. كان يتألف من الانتهازيين الأكثر رجعية المستعدين لبيع بلادهم عن طيب خاطر بالسعر المناسب، تحالف من التكنوقراطيين المغتربين السابقين وأمراء الحرب المحليين والزعماء الذين لم يكن النظام والدولة بالنسبة لهم أكثر من مجرد وسيلة للإثراء الذاتي. في ظل حكم هؤلاء، لم يكن الناس -الذين يعيش معظمهم في فقر مدقع- قادرين على الوصول حتى إلى أبسط الخدمات العامة دون رشوة.

كان الجيش الأفغاني، المكون رسميا من 300.000 جندي، مليئا بـ"الجنود الأشباح". أي الجنود الموجودين على الورق فقط، كوسيلة لتحويل الأموال إلى جيوب القادة والنخب المحلية. وفي النهاية لم تكن وظيفته الحقيقية أكثر من غطاء للإمبريالية الأمريكية. وحيثما تمكن من العمل، كان يُنظر إليه في كثير من الأحيان على أنه قوة احتلال أكثر من كونه جيش وطني. لا عجب إذن أن مثل هذا الصرح الفاسد كان لينهار بضربة واحدة بمجرد أن تخلت عنه الإمبريالية الأمريكية.

إن الجماهير الأفغانية تكره طالبان. لكن ومن ناحية أخرى، فإنه لا أحد يؤمن بالنظام الفاسد الذي تفرضه الولايات المتحدة، وبالتأكيد لا أحد على استعداد للمخاطرة بحياته لإنقاذه. بينما تتكون قوات طالبان، على النقيض من ذلك، من أصوليين إسلاميين متشددين ومتطرفين يعتبر الموت بالنسبة لهم أسمى جائزة يحصلون عليها.

لقد تلقت هذه الحركة الرجعية الدعم والرعاية على مدى عقود من قبل الطبقة السائدة الباكستانية، التي سعت تاريخيا إلى السيطرة على أفغانستان. ومع ذلك، فقد تمتعت مؤخرا بدعم متزايد من إيران والصين وروسيا، وكلهم قلقون من الاضطراب المتزايد الذي يتسبب فيه تراجع القوة الأمريكية.

لقد ساعد هذا طالبان على اكتساب المزيد من الزخم. تسعى تلك القوى بطريقة ما إلى ترويض الإسلاميين من خلال تقديم حوافز اقتصادية وسياسية لهم لتقييد أنشطتهم داخل حدود أفغانستان. لكن تحقيق هذا لن يكون بالضرورة بسيطا. طالبان ليست حركة مركزية. ولا يقودها رجال عقلانيون يمكن السيطرة عليهم بسهولة. لقد مرت الإمبريالية الأمريكية بالعديد من التجارب المريرة للتوصل إلى هذه الحقيقة.

من يمكن الوثوق به؟

إن كلبية الإمبريالية الغربية مفضوحة أمام العالم بأسره. فنفس هؤلاء الأشخاص الذين يتحدثون كل يوم عما يسمى بـ"القيم الغربية" مثل "الديمقراطية" و"حقوق الإنسان"، ينسحبون الآن من أفغانستان ويتركون مساعديهم المحليين تحت رحمة عصابة من البرابرة المتخلفين. لقد أعرب وزير الدفاع البريطاني عن حزنه لأن "بعض الناس لن يعودوا" في حين تحاول بريطانيا إجلاء مواطنيها وبعض الأفغان الذين تعاونوا مع قواتها.

عندما كانت "مساعدة الناس" تعني قصف وغزو أمة فقيرة، لم يكن يتم ادخار أي موارد. لكن عندما صارت "مساعدة الناس" تعني تأمين حياة الناس من خلال مساعدتهم على الفرار من نظام قاتل توقف كل شيء.

لقد غزت الإمبريالية الأمريكية، وقوات الناتو التي تدعمها، أفغانستان مدعية أنها ستعمل على استئصال جذور الأصولية الإسلامية، وبناء دولة ديمقراطية حديثة. لكن بعد عشرين عاما، وبعد إنفاق تريليونات الدولارات، وفقدان مئات الآلاف من الأرواح، وتدمير جيل كامل، لم تقترب أفغانستان من تحقيق تلك الوعود ولو قيد أنملة. وها هم هؤلاء الجبناء، بعد أن دمروا البلاد لمدة 20 عاما، يفرون أخيرا مثل الكلاب وذيولهم بين أرجلهم، تاركين الشعب الأفغاني تحت رحمة مجانين طالبان. هذا يجعلهم يستحقون أن يلعنهم إلى الأبد عمال كل العالم.

لا يمكن للجماهير الأفغانية أن تعتمد على أي من تلك القوى. كما لا يمكنها الاعتماد على الطبقات السائدة في الصين أو روسيا أو إيران، أو أي قوة أخرى تتربص في الظل وتحاول التأثير على الوضع في البلاد اليوم. لا يمكن للجماهير الأفغانية أن تعتمد إلا على قواتها الخاصة، والتي بمجرد ما تتحرك ستصير أقوى بكثير من أي جيش. لقد أثبتت ذلك عبر تاريخها.

لقد عاش الشعب الأفغاني أصعب الأوقات، لكنه تمكن كل مرة من أن ينهض مجددا من أسوء المحن. لدينا ثقة تامة بأنه سوف ينهض مرة أخرى وسيطهر بلاده من كل آثار الظلامية والرجعية والإمبريالية.

حميد علي زاده
16 غشت/أغسطس 2021

النزاع حول نهر النيل والحل الاشتراكي



أزمة مياه نهر النيل والنزاع حوله وصلت لطريق مسدود، بعد سنوات من التفاوض والخطابات العدائية المتبادلة واللغة الشوفينية المقيتة. نحن هنا نتحدث عن أزمة جديدة تؤثر على حياة مئات الملايين في مصر والسودان وإثيوبيا، أزمة لا يفاقمها سوي ضيق الأفق وقصر النظر الرأسمالي والسعي وراء المصالح القومية الضيقة التي لا ترى حل إلا على حساب الطرف الآخر.

لا مخرج من الأزمة على أساس الرأسمالية، الرأسمالية هي سبب الأزمة. في ظل فدرالية اشتراكية يمكن للطبقات العاملة في البلدان الثلاث وضع خطة متناغمة لا يجني طرف على الآخر في ظلها، خطة تراعي أهمية المياه والزراعة في مصر والسودان، وتجنب السودان ويلات الفيضانات، وتراعي مقتضيات التحديث والصناعة والكهرباء في إثيوبيا. في ظل اقتصاد اشتراكي مخطط يتجاوز فوضى الرأسمالية والمصالح القومية الضيقة ودافع الربح على حساب الأرواح يمكننا تحويل تلك المنطقة من العالم، بلدان حوض النيل، المليئة بالموارد الطبيعية والبشرية المهولة لجنة على الأرض.

نفاق الطبقة الحاكمة المصرية

دعونا نبدأ بحقيقة ثابتة يعلمها الجميع، حتى أن رئيس الوزراء المصري مصطفى مدبولي اعترف بها بشكل علني، أن مصر دخلت حيز الفقر المائي منذ سنوات بالفعل، صحيح أن سد النهضة سيفاقم الأزمة المائية لكنه لن يبدأها لقد كانت موجودة بالفعل. إن كل دعاية أبواق النظام الإعلامية ما هي إلا كذب فج، ليس صحيح أن الوضع المائي في مصر كان هادئاً مستقراً وأتي السد الإثيوبي يعكر صفوه.

إن الطبقة الحاكمة المصرية هي أول من أهانت مياه نهر النيل وأساءت استخدامها بتبذير وقصر نظر، وتلك صفات متأصلة في الرأسمالية. إن مصالح الطبقة الحاكمة المصرية لا تهتم بشيء غير الربح وتنامي ثرواتها، أما تخطيط الاقتصاد بشكل مستدام ومتناغم مع البيئة وعدم استنزاف الموارد فليس في قائمة اهتمامات الطبقة الحاكمة المصرية اصلاً.

إن مزاعم الطبقة الحاكمة المصرية في الدفاع عن نهر النيل ليست سوى نفاق محض. تلك الطبقة الحاكمة التي تدعي دفاعها عن النيل سمحت بإهدار حوالي 29,7% من مياهه سنوياً، سواء نتيجة سوء الإدارة، مثل عدم صيانة مواسير المياه والاعتماد على طرق قديمة في الري والزراعة وعدم الاستثمار في البحث العلمي في المجال الزراعي، أو عن طريق التبذير واستخدام مياه نهر النيل في ري ملاعب الجولف والمنتجعات السياحية للأغنياء، في الوقت الذي فيه حوالي 17% من الأسر المصرية محرومة من الوصول لمياه شرب آمنة و حوالي 53.4% دون صرف صحي محسن، هذا بخلاف تلوث المياه في نهر النيل، المسؤول عن نسبة 90% منه هو الصرف الصناعي.

النظام المصري الذي سمح بتلويث مياه النيل من قبل رجال الأعمال، و تبذير المياه في منتجعات الأغنياء، ولم يستثمر قرشاً واحداً في تطوير البنية التحتية ووسائل الري إلا بعد تراكم الأزمات والمشاكل، استفاق هذا النظام فجأة من غفلته على وقع الأزمة التي استفحلت ليدعي أنه حامي النيل والأمة المصرية.

لا ثقة في ادعاءات النظام في دفاعه عن نهر النيل وحياة الجماهير، لا يجب أن نقدم أدنى تنازل للنظام تحت دعاوى "الوحدة والاصطفاف الوطني" في مواجهة الخطر المشترك، لأنه جزء من هذا الخطر على حياتنا ومسبب له. ليست الجماهير والطبقة العاملة الإثيوبية هم من يمثلون خطر على حياة ومستقبل الطبقة العاملة المصرية والجماهير الفقيرة بل الطبقة الحاكمة المصرية من رجال أعمال وجنرالات، هؤلاء هم أعدائنا الحقيقيين.

هؤلاء الذئاب لم يشعروا بذلك "الخطر المشترك" وهم يلوثون مياه النهر لتعظيم أرباحهم، ولم يشعروا به وهم يستخدمون مياهه لري منتجعاتهم، لم يشعروا بذلك الخطر وهم يتعاملون طيلة عقود

مع النهر كحق مكتسب و منبع لا ينضب لا يحتاج للتطوير والاستثمار، ويريدون الآن أن نثق فيهم ونصدق أنهم يهدفون مصلحتنا حقاً.

النظام الرأسمالي المصري، والديكتاتورية العسكرية التي تحميه، بقصر نظره وسعيه وراء مصالحه الأنانية و الضيقة التي لا يرى سواها يهددنا اليوم نتيجة جرائمه المستمرة منذ عقود بالعطش والجوع بشكل مباشر. إن لم نتخلص من الرأسمالية فنحن محكوم علينا بالبقاء أسرى التبذير ودافع الربح ورفاهية أثرياء هذا الوطن.

وحدها الطبقة العاملة المصرية هي القادرة على توفير طريق للخروج من هذا المأزق، بمصادرة البنوك والشركات الكبرى ووضعها تحت رقابة العاملين فيها، واستخدام تلك الثروات والموارد بشكل ديمقراطي لمصلحة الأغلبية وفي تناغم مع البيئة، استخدام تلك الموارد لتحديث شبكة الري وشبكة الصرف الصحي، للاستثمار في المجال الزراعي الحيوي. وحدها الطبقة العاملة المصرية التي تستطيع توجيه خطاب لرفاقها ورفيقاتها في إثيوبيا، خطاب رفاقي أممي يدفع نحو وحدة المصالح والمصير الذي يربط الطبقة العاملة العالمية ببعضها البعض. ما يحول دون ذلك هو الرأسمالية ومصالحها الأنانية والدولة البرجوازية التي تحميها.

الطبقات الحاكمة تستغل الأزمة لصالحها

كل من النظام المصري والإثيوبي يستغلون الأزمة لمصلحتهم الخاصة ولتعزيز موقفهم وتدعيم سلطتهم. كلا النظامين يعمل على بث خطاب شوفيني بدعوى "المصلحة العامة"، وهذا ليس للتغلب على أزمة المياه أو الكهرباء فقط، وإنما أيضاً للتعمية على الأزمات الداخلية المستفحلة. كلا النظامين لديه أزمات اقتصادية وسياسية عميقة، وفي سياق ذلك جاء النزاع على نهر النيل كفرصة ذهبية لكلاهما لإخراس الأصوات الساخطة بدعوى "الوحدة" ضد "العدو الخارجي". هذا يمكن أن يوفر بعض الوقت الآمن لكلا النظامين، لكن الأكيد أنه بسرعة سوف تتبدد الغيوم الشوفينية وتتحطم على صخرة الأزمات والتناقضات الداخلية المستعصية كل دعاوى الاصطفاف والوحدة.

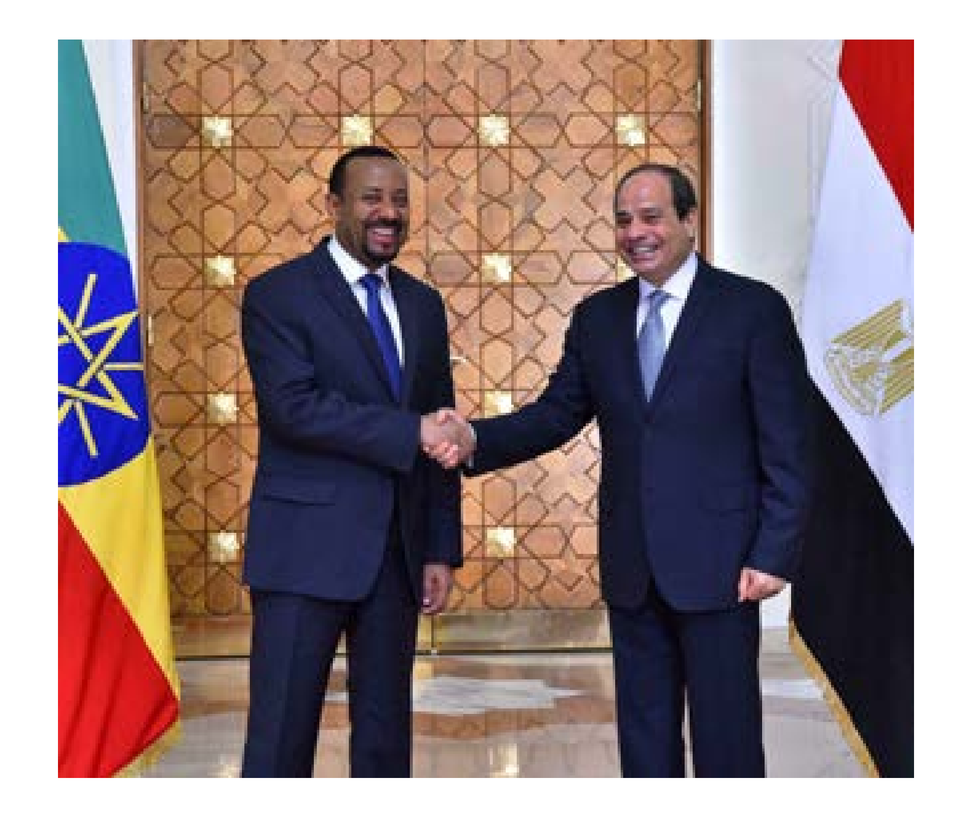
النظام المصري يواجه أزمة اقتصادية عميقة، استطاع التحكم فيها بمزيج من الاستدانة واسعة النطاق والوعود بمستقبل بعيد مشرق عن طريق الإعلان عن مشاريع قومية لا تنتهي، تمتص أحياناً جزء من العمالة و تعمل كمحرك للاقتصاد في الفترة الحالية، وفي سياق ذلك يحمل الجماهير فاتورة الأزمة عن طريق رفع الأسعار والتضخم ورفع الدعم عن السلع والخدمات الأساسية. كما أنه يعاني من أزمة سياسية مزمنة، فهو فاقد لأي شرعية سياسية سوى الخوف، ولا يحميه سوى القمع العاري والجمود المؤقت للجماهير، الذي لا يعلم أحد متى يمكن أن ينتهي. النظام المصري يستخدم أزمة المياه للتعمية عن كل هذه التناقضات الداخلية، هو يحتاج إلى "عدو خارجي" لتحميله سبب الفشل بوعوده المستقبلية، التي حتماً سيفشل في الإيفاء بها، بعد أن فقدت ورقة "الحرب على الإرهاب" جزء من تأثيرها وقوتها.

لكن في نفس الوقت لا يريد النظام المصري من الجماهير أن تكون شريكة في القرار أو أن تتدخل في الأحداث، خطاب النظام في منابره الإعلامية يدفع نحو استنهاض روح "الوحدة الوطنية" بدون أن يؤدي ذلك لتدخل الجماهير أو تخويف الجماهير من الأزمة للدرجة التي تبدأ فيها الجماهير بمساءلة النظام. فهو يدعوهم إلى عدم تضخيم الأزمة وأن كل شيء تحت السيطرة، ولندع أولي الأمر، الأفهم منا جميعاً، يتولوا زمام الأمور.

لكن النظام المصري برغبته الاستفادة دعائياً من الأزمة دون اتخاذ إجراءات جدية لمواجهتها، فهو يغامر بمفاقمتها، مغامرة في الغالب لا تستند إلا على الإيمان بأن كل شيء سيسير على ما يرام، والحق أنه إيمان الضعفاء. نحن نتحدث هنا عن نهر النيل الذي يعتمد عليه القطاع الزراعي بشكل شبه كلي، هذا القطاع المسؤول عن تشغيل حوالي 30% من العمالة المصرية، بعضهم سيكونون مهددين بالبطالة أو الزحف للمدن والانخراط في اقتصاد الأعمال اليومية، المشبعة بالملايين أصلاً، في السنوات القليلة القادمة، وهذا سيؤدي لتفاقم التناقضات الداخلية والطبقية، مع آثار هذا على وضع الاقتصاد السيء، الذي تمثل فيه الزراعة 14,5% من ناتجه الإجمالي و11% من مجمل الصادرات. كل هذا يجعل خيارات النظام محدودة وشديدة الخطر ويمكن أن تؤدي لبؤس مئات الآلاف إن لم نقل الملايين في السنوات القادمة.

أما النظام الإثيوبي الذي كان ينظر إليه كنموذج صاعد في منطقة القرن الإفريقي، الآن يواجه أزمات داخلية تضعه على حافة الهاوية. مع انفجار الصراع المسلح في إقليم تيجراي والهزائم التي مني بها هناك، لم يتبقى لرئيس الوزراء آبي أحمد سوى ورقة التوت المتمثلة في سد النهضة كآخر معاقل شرعيته المتآكلة باستمرار. وهو يعلم ذلك جيداً ويستخدم ورقة سد النهضة بكلبية وانتهازية منقطعة النظير، إلى درجة أن يبرر هزائمه في إقليم تيجراي بانشغال قواته بالدفاع عن السد ضد "التهديد الخارجي"، وأعلن بعدها مباشرة بدأ الملء الثاني للسد، الذي على الأغلب كان مجرد مناورة إعلامية للتغطية على الهزائم الميدانية في إقليم تيجراي.

في قلب هذا الواقع المعقد والمليء بالأزمات، وتاريخ متوارث من النزاعات، تبدو خيارات الطبقة الحاكمة المصرية والإثيوبية محدودة جداً، وجميعها ليست في مصلحة الجماهير المصرية والإثيوبية. النظام المصري بسوء استخدامه للمياه وعدم تطوير البينة التحتية طيلة العقود الماضية لم يحسب حساب هذه اللحظة، وميراث التعالي الحكومي المصري على التطلعات التحديثية الإثيوبية يمنعه من مد حبال الود والتواصل مع النظام الإثيوبي، النظام المصري في أزمة وهامش المناورة لديه ضئيل جداً. والنظام الإثيوبي على الناحية الأخرى يمثل له السد عمود بقائه، وأزمته الداخلية تجعل موقفه أكثر تصلباً. سد النهضة يمثل أمل الجماهير الإثيوبية في مد البلاد بأكملها بالكهرباء وتحديث المجتمع، وقد تغاضي الجماهير عن الهجمات التي يقودها آبي أحمد على بعض حقوقها الاقتصادية والسياسية بشكل مؤقت في سبيل إكمال هذا المشروع، هذا التغاضي مرهون بشكل جزئي بمشروع السد، فشل أو تعطل مشروع سد النهضة سيمثل خطر حقيقي على آبي أحمد والنظام الإثيوبي كله، وهذا يقلص هامش المناورة



الضئيل اصلاً عند النظام الإثيوبي. وتشابك المصالح الدولية والإقليمية يعقد الوضع ولا يسمح بوجود وساطة تلقى رضا الطرفين. السعودية والإمارات حلفاء النظام المصري هم من أهم من المستثمرين في سد النهضة والمشروع الزراعي حوله، الصين هي أكبر مستثمر في السد، والولايات المتحدة تدعم مصر لمجابهة النفوذ الصيني في القرن الإفريقي.

على الماركسيين المصريين والاثيوبيين أن يفضحوا نفاق طبقاتهم الحاكمة، لا يمكن أن نقدم أدنى تنازل للطبقات الحاكمة التي وضعتنا في الأزمة. وبالطبع نحن ضد الحرب، إن حدثت. تلك الحرب لن تؤدي سوى إلى تعقيد الموقف وزيادة الأحقاد القومية بين الطبقات العاملة لبلدان حوض النيل. نحن أمميون، وموقفنا يعتمد على المصالح التاريخية للطبقة العاملة وتطوير الصراع الطبقي وليست المصالح القومية الضيقة، المصالح التاريخية للطبقة العاملة تقتضي التآخي والترابط ووحدة النضال والمصير وليس العداء تحت أي دعوى من الدعاوى. لسنا مثل القوميين المصريين الذين ينادون اليوم على لسان أحد رموزهم، أحمد طنطاوي، بضربة عسكرية للسد تقسم إثيوبيا لثلاث دول. تلك الهستيرية الشوفينية المتعالية، المحببة للقوميين والناصريين، هي من أهم أسباب تعقيد الموقف اصلاً، ولن تؤدي سوى لزيادة الأحقاد القومية وتفجير النزاع بشكل أكبر في المستقبل.

موقفنا، كماركسيين، هو عداء متساوي اتجاه الطبقة الحاكمة المصرية والإثيوبية، تلك القلة المتحكمة في ثروات البلدين، الذين يفقرونا ويقمعونا ويستلغونا ويقتلوننا، تلك القلة اليوم تدفع جماهير البلدين ليكرهوا بعضهم بعضاً، ليكونوا أعداء، في الوقت الذي ينبغي فيه أن تتكاتف الجماهير المصرية والإثيوبية لمواجهة قلة الموارد الآخذة في ازدياد.

وصول الرأسمالية لحدودها وضرورة الحل الاشتراكي

أن أزمة مياه نهر النيل تُظهر بوضوح أن الرأسمالية وصلت لحدودها وأصبحت عقبة أمام تطور المجتمع البشري.

والحق أن العمودان اللذان تقومان عليهما الرأسمالية، الملكية الخاصة والدولة القومية، ليس فقط أصبحا يعيقان المجتمع البشري عن التقدم، بل الأكثر أنهم أصبحوا يهددان المجتمع البشري بجره نحو البربرية. مثلما ظهر بشكل واضح خلال الجائحة، التي تحولت خلالها الدولة القومية لقاطع طريق، وبدأت الدول تستولي وتحتجز الشحنات الطبية لبعضها البعض، في الوقت الذي كان يمكن السيطرة على انتشار الفيروس في بدايته وتفادي مئات الآلاف من الضحايا الذين كان يمكن إنقاذهم، فقط لو تم وضع خطة عالمية وتجميع كل الموارد والمعارف البشرية لمواجهة فيروس لا يحترم الحدود القومية وإجراءات الهجرة.

الرأسمالية التي تقوم على الخصاص واستنزاف الموارد الطبيعية والتبذير وتدمير البيئة، تدفع الطبقات العاملة والجماهير في البلدان المختلفة للوقوف ضد بعضهم البعض.

ما يعيق الوصول لحل لأزمة مياه نهر النيل هي المصالح المتناقضة للطبقتين الحاكمتين المصرية والإثيوبية، اللتان تدفعان نحو مواقف لا تؤدي إلى أي شيء سوى تعقيد الوضع.

في ظل الرأسمالية ستظل أزمة مياه نهر النيل مستمرة وسوف تتفاقم، حتى إن جرى تسكينها اليوم باتفاق بين الطرفين، وهذا السيناريو ليس مستبعداً بعد، فستعود للظهور مجدداً في المستقبل بشكل أكثر حدة، خصوصاً في فترات الجفاف، وقد يكون هذه المستقبل أقرب مما نتصور، خصوصا لو نظرنا إلى الموضوع من زاوية التغيرات المناخية الحادة التي نشهدها في العالم اليوم.

الحل هو تجاوز الرأسمالية واسقاطها، في مصر والسودان وإثيوبيا، مصادرة البنوك والشركات الأجنبية والشركات الكبرى، واستخدام تلك الموارد والثروات لمصلحة شعوب المنطقة، الحل هو في تحالف الطبقات العاملة لبلدان حوض النيل، لإسقاط الطبقات الحاكمة التي تجرنا جميعاً نحو الهاوية.

بإسقاط الرأسمالية نستطيع أن نحيا جميعاً حياة إنسانية حقاً، نستطيع أن نتجاوز إرث الفقر والجوع والبطالة والتخلف والأحقاد القومية والحروب والحروب الأهلية، نستطيع أن نتمتع جميعاً بمياه صالحة للشرب وبزراعة متطورة وصناعة حديثة وقوية وكهرباء دائمة وبسكن آدمي وعمل لائق وذو أجر جيد في سياق خطة اقتصادية تحديثية ومخططة ديمقراطياً، لتكون الخطوة الأولى نحو إنشاء مجتمع اشتراكي في كل من البلدان الثلاث، كجزء من الثورة الاشتراكية الإفريقية والعالمية. فقط في ظل فدرالية اشتراكية لبلدان حوض النيل، تستطيع الطبقات العاملة والجماهير تقاسم الموارد بشكل عادل، دون اعتبارات الربح وتجاوز المصالح القومية الضيقة.

- **لا للحرب!**
- **لا للصفقات البرجوازية!**
- **تسقط حكومات رجال الأعمال!**
- **نحو تحالف الطبقات العاملة وجماهير المنطقة!**
- **لا حل سوى انتصار الثورة الاشتراكية بقيادة حكومة عمالية!**

محمد حسام

17 غشت/أغسطس 2021



المغرب- الجزائر: فلنرد على محاولات التقسيم بالوحدة الطبقية بين عمال البلدين

يوم الثلاثاء 24 غشت، أعلن وزير الخارجية الجزائري، رمطان لعمامرة، قطع العلاقات الدبلوماسية مع المغرب، وبهكذا خطوة يكون النظامان الجزائري والمغربي قد وصلا إلى الخلاصة «المنطقية» لذلك التصعيد الكبير الذي تعرفه علاقاتهما وخاصة في الآونة الأخيرة.

وكما كان منتظرا انخرطت وسائل الإعلام من كلا البلدين في حملة بث السموم الشوفينية ودق طبول الحرب والدعوة إلى تمتين الجبهة الداخلية ضد «العدو الخارجي». نحن الماركسيون نقول لا ذرة دعم لأي من النظامين فكلاهما رجعيان وعدوان لشعوب المنطقة، ونؤكد أن الطبقة العاملة وعموم الكادحين في كل من المغرب والجزائر إخوة مصالحهما مشتركة وعدوهما المشترك هو النظام الرأسمالي والدكتاتورية في كلا البلدين، ونضالهما واحد من أجل بناء فدرالية اشتراكية للمنطقة المغاربية.

عداوة دائمة

تعرف العلاقة بين النظامين توترا دائما تارة يصعد إلى السطح على شكل أفعال وتصريحات عدائية، وتارة يبقى مستترا وراء عبارات دبلوماسية وابتسامات منافقة.

فخلال أكثر من ستين سنة لم تفتح الحدود بين البلدين سوى حوالي 12 سنة، في حين تم إغلاقها مرارا، في المرة الأولى بسبب حرب الرمال سنة 1963، ثم بسبب المواجهات العسكرية التي خاضها المغرب مع جبهة البوليساريو في منطقة أمغالا الحدودية سنة 1976، وفي أعقاب الهجوم الذي استهدف فندق اسني بمراكش سنة 1994، والذي اتهم المغرب الجزائر بالوقوف وراءه.

وبينما يتهم النظام المغربي الجزائر بدعم جبهة البوليساريو والإضرار بمصالحه، اتهم النظام الجزائري المغرب في بيان لعمامرة الأخير بـ «القيام بأعمال غير ودية وأعمال عدائية ودنيئة» ضد الجزائر، والتي من بينها الاعتراف بمنظمتي الماك ورشاد، اللتين تعتبرهما الجزائر منظمتين ارهابيتين، واتهمتهما بالوقوف وراء الحرائق التي عرفتها منطقة القبايل مؤخرا. إضافة إلى التصريح الاستفزازي الذي قام به رئيس البعثة المغربية لدى الأمم المتحدة، عمر هلال، حيث عبر عن دعمه لما أسماه "حق الاستقلال الذاتي لمنطقة القبايل"، ثم تطبيع النظام المغربي مع اسرائيل والصمت على التصريح العدائي ضد الجزائر الذي أطلقه وزير خارجية الدولة الصهيونية من الرباط، ناهيك عن فضيحة استعمال المخابرات المغربية لبرنامج التجسس الإسرائيلي "بيغاسوس" للتجسس على أرقام هواتف 6000 من كبار المسؤولين الجزائريين...

أخوة دائمة

لن نتمكن في هذا الحيز من سرد كل تفاصيل العلاقة الوثيقة بين شعوب البلدين، لذا سنتعامل معها بانتقائية شديدة، وباختصار نقول إنه لشعوب البلدين تاريخ طويل من التمازج والتآخي. فبالإضافة إلى الارتباطات العائلية عميقة الجذور، هناك تضامن نضالي تعود جذوره، على الأقل، إلى القرن التاسع عشر ومرحلة النضال ضد الاستعمار المباشر.

ودون الدخول في التفاصيل نشير إلى أنه مباشرة بعد احتلال فرنسا للجزائر، 1830، وانطلاق المقاومة المسلحة في الجزائر، انخرطت القبائل المغربية، خاصة المتاخمة للجزائر، في حملة تضامن وصلت إلى المشاركة الفعلية في النضال. وذلك رغم رفض السلطة المركزية بالمغرب، المخزن، وتواطئها مع السلطات الاستعمارية من خلال المشاركة في قمع القبائل الثائرة.

ازداد هذا التضامن اتساعا وعمقا بعد اندلاع الثورات التحررية المغربية ضد الاحتلال الفرنسي والاسباني. كان كل انتصار يتحقق على أحد طرفي الحدود يشكل مصدر فرحة وإلهام للجانب الآخر.

كان جيش التحرير المغربي وجبهة التحرير الجزائرية رفاقا في السلاح، وصل التعاون بينهما والتنسيق إلى مستويات جد متطورة، وهو ما ساهم فيه إلى حد كبير المقاوم الكبير عبد الكريم الخطابي من منفاه في مصر.

وقد كانت لجيش التحرير الوطني الجزائري قواعد تدريب ومخابئ سلاح في المغرب بدعم من جيش التحرير المغربي وعموم الشعب المغربي. كما وجد المقاومون المغاربة والمعارضون لنظام الحسن الثاني، ملاذا آمنا في الجزائر خلال سنوات القمع في الستينات والسبعينات.

استمر التضامن بين شعوب المغرب والجزائر حتى في أحلك فترات التوتر بين النظامين، وبالرغم من كل دعايتهما المسمومة. وكان آخر مظاهر هذا التضامن ذلك التعاطف الكبير الذي لاقى به عمال وشباب الجزائر الحراك الثوري الذي عرفه المغرب خلال العشرية الأخيرة، من جهة، والتعاطف الكبير الذي استقبل به عمال وشباب المغرب الحراك الثوري الذي عرفته الجزائر خلال السنتين الأخيرتين، مؤكدين بذلك أن الحدود الوحيدة الحقيقية هي الحدود بين الطبقات وليس حدود العار التي رسمها الاستعمار ويحرسها النظامان الدكتاتوريان القائمان على هذا الطرف وذاك.

الأزمة

لكي لا يتم خلط الأسباب بالنتائج لا بد من الاشارة إلى أن التصعيد الأخير بين النظامين، والذي انخرط فيه بحماس إعلام العهر في كلا البلدين، ليس سوى نتاج للأزمة وتعبير عنها.

السبب الحقيقي للأزمة هو وجود هذين النظامين بالذات. نظامان رأسماليان تابعان، تقتضي مصالحهما الصراع ضد بعضهما البعض من أجل النفوذ في المنطقة وحول من يستحق أن يلعب دور الكلب الأمين لمصالح الامبرياليات في المنطقة، سواء على المستوى الاقتصادي أو الأمني. وبالتالي ما داما موجودان فإنه لا أمل في أي انفراج أو تنمية في مصلحة شعوب المنطقة.

ومثلما يدفع الجوع الضباع إلى نهش بعضها البعض بوحشية أكبر، تصير الأنظمة السياسية أكثر شراسة في الدفاع عن مصالحها والصراع ضد منافسيها عندما تغرق في الأزمة وتصير مهددة في وجودها. والنظامان المسيطران في المغرب والجزائر كلاهما يعيشان اليوم أزمة تاريخية عميقة غير مسبوقة، وكلاهما يجلسان على فوهة بركان من الغضب الشعبي والسخط ضد الاستغلال والقهر والدكتاتورية. وهو ما يجعلهما معا أكثر حدة في الدفاع عن مصالحهما الضيقة، وفي حاجة حيوية إلى توجيه السخط الشعبي نحو "العدو الخارجي"، باستغلال الخلافات الموجودة واختلاق خلافات جديدة، لتسعير نيران الشوفينية، وتغذية نفسية القلعة المحاصرة ضد "الجيران الذين يتربصون بنا شرا".

فالجزائر تمر بأزمة خانقة، وهو ما عبرت عنه الباحثة المقيمة في مركز كارنيغي للشرق الأوسط، داليا غانم، قائلة إن «الوضع الاقتصادي للجزائر يزداد سوءا يوما بعد يوم ويؤدي إلى إفقار شرائح كاملة من السكان وارتفاع معدلات البطالة وباختصار جميع المؤشرات الاقتصادية حمراء». وقد تراجع الاقتصاد الجزائري بنسبة 08% خلال العام الماضي 2020 وحده. وفي الوقت الذي تقول فيه المصادر الرسمية أن نسبة البطالة بين الشباب تبلغ 15%، فإن الحقيقة هي أن أكثر من ثلث الشباب في سن العمل يعيشون البطالة.

أستاذ الاقتصاد، علي حاجي، يعتبر أن هذه الأزمة الاقتصادية والاجتماعية "تهدد استقرار البلاد"،

أي، بعبارة أصح: استقرار الطبقة السائدة وأسيادها الإمبرياليين. وفعلا فالصراع الطبقي يعرف تصاعدا واتساعا وعمقا بشكل غير مسبوق: النهوض النضالي عارم والطبقة العاملة الجزائرية تزداد ثقة في قدرتها وتزداد كفاحيتها يوما بعد يوم.

الطبقة السائدة في المغرب ونظامها ليسا أحسن حالا، بل ربما أسوء. وفي هذا الصدد سبق لنا أن استشهدنا في مقالة سابقة (المغرب: عاصفة تختمر!) بتصريح مرعوب لوزير المالية المغربي، محمد بنشعبون، قال فيه إن الوضع الحالي "محفوف بالمخاطر". وهو التصريح الذي صادقت عليه صحيفة البرجوازية المغربية -L'économiste- عندما أكدت في افتتاحيتها أن: «وزير المالية محق تمامًا في وصف الوضع الحالي بأنه "محفوف بالمخاطر"». وأضافت: «ربما يتعين علينا العودة إلى سنوات الاستقلال الأولى لنجد ما يشبه هذا الوضع الصعب».

مضيفة أن: «الوضع اليوم أسوأ مما كان عليه خلال أعوام 1980-1985. في ذلك الوقت كان المغرب يعيش الانهيار المالي، وجفاف تاريخي سواء في مدته أو حدته، وكان الدولار قد أصبح فجأة باهظ الثمن، بينما كانت العلاقات المالية الخارجية مقومة بهذه العملة. إضافة إلى تضخم وصل مستوى لم يسبق له مثيل، ولم يحدث ما يشابهه منذ ذلك الحين: 15% في عام 1983».

البطالة وصلت مستويات غير مسبوقة، وهو ما يؤكده البنك العالمي حيث جاء في تقريره إن: «سوق الشغل يواجه صدمة ذات أبعاد تاريخية، حيث سيتأثر على وجه الخصوص العمال الأكثر هشاشة، ولا سيما العاملين في القطاع غير الرسمي [...] حيث فقد 66% من العمال وظائفهم». وكان وزير المالية قد أشار إلى أن الاقتصاد الوطني يفقد 10.000 وظيفة يوميا.

كل المؤشرات في الأحمر، والطبقة السائدة لا تتوانى عن تطبيق المزيد من الهجمات على مستويات عيش وظروف عمل الطبقة العاملة وعموم الكادحين. مما يعتبر وصفة مكتملة لاندلاع صراع طبقي عارم في المستقبل.

هذا هو الواقع الذي تعرفه الطبقات السائدة في المغرب والجزائر، وهو ما تحاول تجاوزه من خلال القمع من جهة ومن خلال سياسة الالهاء والشوفينية من جهة أخرى. وشعوب البلدين والمنطقة بأسرها هي من تؤدي الفاتورة على شكل استمرار الفقر والبطالة والتخلف...

فحسب بعض التقارير تبلغ كلفة إغلاق الحدود على الاقتصاد المغربي حوالي أربعة مليارات دولار سنويا، والوضع ليس أفضل بالنسبة للاقتصاد الجزائري، مما يعني فرصا للنمو مهدرة ومئات الآلاف من مناصب الشغل الضائعة سنويا. وكان صندوق النقد الدولي قد أشار في دراسة سابقة إلى أن الاتحاد الاقتصادي بين المغرب والجزائر من شأنه أن يرفع من معدل دخل الفرد بالبلدين بـ57% للجزائر و38% بالنسبة للمغرب.

كابح مطلق

يشرح ماركس أن المبرر الموضوعي لبقاء أي نظام اقتصادي سياسي هو قدرته على تطوير قوى الانتاج. والآن إذا حاكمنا نظامي البلدين اعتمادا على هذا القانون سنجد أنهما فاقدان بشكل كلي لأي مبرر للبقاء، حيث يشكلان معا كابحا مطلقا أمام تطور قوى الانتاج وسببا في التخلف والخراب في منطقة غنية بثرواتها البشرية والطبيعية الهائلة.

هذا ما قدمته لنا الطبقات السائدة على طرفي الحدود، بعد 60 سنة من "الاستقلال". ولا إمكانية لانتظار أي تغير في الوضع ما دامت الطبقة الرأسمالية هي الحاكمة هنا وهناك. إنها طبقة رجعية وكابح مطلق أمام الازدهار والتنمية وبالتالي ينبغي القضاء عليهما بطريقة ثورية.

وفي هذا السياق نقول إن كلا النظامان رجعيان ولا ذرة دعم لأي منهما، مهما كان البادئ بالاستفزاز أو بالأعمال العدائية. إن صراعهما مع بعضهما البعض ليس لخدمة مصالح شعوب المنطقة، بل فقط وحصريا لخدمة المصالح الضيقة للطبقة السائدة في البلدين، أي نفس الطبقة التي تستغل وتنهب وتقمع وتفرض التخلف على شعوب البلدين. إن السياسة الخارجية لأي دولة هي استمرارية لسياستها الداخلية، وسياستهما الداخلية معا سياسة رجعية عدوة للطبقة العاملة والشعب الكادح على طرفي الحدود.

من أجل فدرالية اشتراكية في المنطقة

كل المشاكل التي تعاني منها شعوب المنطقة: الفقر والاستغلال والتخلف والقهر القومي والقمع والدكتاتورية، ليست قضاء وقدرا. إن المنطقة غنية بثروات هائلة، الجزائر تمتلك الغاز والنفط وأراض شاسعة وغيرها من الثروات، كما أن المغرب يمتلك أكبر احتياطي للفوسفاط ومناجم غنية بالذهب والفضة والكوبالت وغيرها من المعادن والثروات الطبيعية الأخرى، وقبل كل ذلك يزخر البلدان بطاقات شابة هائلة، لكنها مهدرة بسبب النظام الرأسمالي المأزوم.

في ظل نظام اشتراكي يقوم على التخطيط الديمقراطي العقلاني للاقتصاد، متحرر من الهيمنة الامبريالية وسيطرة الأوليغارشيات المحلية التي تنهب البشر والحجر، سيصير من الممكن إطلاق مشاريع للأشغال العمومية لتوفير ما يكفي من مناصب الشغل والمدارس والمستشفيات والمنازل، وحياة أكثر رفاهية وسعادة للجميع، كما سيصير من الممكن توفير الحقوق القومية لكل شعوب المنطقة.

إن الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية في البلدين، وكل شمال افريقيا، متوفرة وناضجة، والطبقة العاملة وعموم الفقراء يعبرون من خلال نضالاتهم البطولية عن الرغبة العميقة في التغيير، ويعطون الدليل على القدرة على إحداث التغيير. لا ينقص إلا شيء واحد فقط: إنه الحزب الثوري القادر على تقديم برنامج ومنظورات وقيادة لتلك النضالات لكي تصل إلى تمكين الطبقة العاملة من حسم السلطة.

هذه هي مهمة الشباب الثوري في المنطقة، وهي المهمة التي ينبغي الشروع فيها بأسرع وقت ممكن. الرأسمالية لا تنتج إلا الفقر والاستغلال، وتقود المنطقة والعالم إلى المواجهات والاضطرابات والعداوات القومية. والدليل هو نظاما البلدين. لذا فمهمة الثورة الاشتراكية صارت أكثر راهنية وملحاحية من أي وقت مضى.

والأكيد هو أنه عندما ستندلع الحركة الثورية، في أحد البلدين، سرعان ما ستمتد إلى الجانب الآخر من الحدود وستشكل مصدر إلهام وتحفيز لعمال وشباب المنطقة بأسرها. عندها سنجد الطبقات السائدة ودولها تتحالف مع بعضها البعض لسحق جذوة الثورة. لذا علينا أن نبني الحزب القادر على التصدي لهذه السياسة بسياسة مضادة تقوم على توحيد صفوف الطبقة العاملة والكادحين فوق الحدود المصطنعة في نضال موحد من أجل فدرالية اشتراكية للمنطقة المغاربية وشمال افريقيا.

أنس رحيمي

27 غشت/أغسطس 2021



الانقلاب الدستوري في تونس: لا ثقة في أي فصيل برجوازي

بعد عقد على اندلاع ثورة 2011/2010 التي أطاحت بالديكتاتور المكروه بن علي، ها هي موجة جديدة من الاحتجاجات المناهضة للحكومة تهز تونس مرة أخرى. لقد تمت الإطاحة بالحكومة عبر انقلاب داخل القصر، لكنه لا يمكن الثقة في أي فصيل برجوازي. لا يمكن للجماهير أن تثق إلا في قوتها الخاصة. ولا بد من اندفاعة ثورية جديدة للعمال والشباب لكسب مستقبل حقيقي.

بعد أيام من الاحتجاجات الجماهيرية ضد الحكومة في تونس، تدخل رئيس البلاد قيس سعيد في 25 يوليوز وأطاح بالحكومة وعلق البرلمان متذرعا بسلطات الطوارئ.

وبعد أن قام بإنزال الجيش إلى الشوارع، شدد الحظر على التجمعات العامة ومنع التجول ليلا.

وأعلن في خطاب تلفزيوني مباشر ، أنه سيتولى السلطة التنفيذية للحكومة، ورئاسة النيابة العمومية.

كما حذر من أن من يتطاول على الدولة أو على رموزها سيتحمل المسؤولية كاملة أمام القضاء، في تحذير للمعارضين السياسيين وكل من يجرؤ على التشكيك في شرعية استيلائه على السلطة.

وللامعان في إحباط أي محاولة مقاومة، أضاف: «إنني أحذر كل من يفكر في اللجوء الى السلاح ... ومن يطلق رصاصة واحدة، ستجابهه قواتنا المسلحة العسكرية والأمنية بوابل من الرصاص».

الآن وبعد 10 سنوات من الإطاحة بنظام بن علي المكروه، تسلط هذه الأزمة السياسية الأخيرة الضوء على عجز الرأسمالية عن حل أي من المشاكل التي أخرجت العمال والشباب إلى الشوارع خلال الثورة التونسية عام 2011/2010.

الشرارة

كانت الشرارة المباشرة التي أدت إلى هذه الأحداث هي مزيج من الانهيار الاقتصادي (الذي تفاقم بسبب تأثير جائحة كوفيد 19 في بلد يعتمد على السياحة) وسوء إدارة الحكومة للجائحة.

لم يأت انقلاب القصر من فراغ، بل كان تتويجا لأزمة سياسية طويلة الأمد. أصيب النظام السياسي بالشلل بسبب الصراع بين الرئيس قيس سعيد وبين الحكومة بقيادة رئيس الوزراء هشام المشيشي وراشد الغنوشي. ويقود هذا الأخير أكبر حزب في البرلمان: حزب النهضة الإسلامي، الذي حكم تونس بشكل شبه مستمر منذ ثورة 2011.

وبصرف النظر عن المأزق السياسي، فإن تونس تعاني من أزمة اقتصادية خانقة تفاقمت بسبب جائحة كوفيد 19. قبل اندلاع الجائحة كان اقتصاد البلاد يوجد أصلا في حالة يرثى لها. فقد كان متوسط النمو الاقتصادي السنوي، بين 2011 و2019، تافها بنسبة 1.5%، وفقا لأرقام البنك العالمي.

وهذا ما كنا قد [كتبناه في عام 2019](): «الاقتصاد في حالة ركود. وسجل التضخم 7,5%، وهو أعلى مستوى له منذ ما يقرب من 30 عاما. ما يزال معدل البطالة عند 15% بشكل عام، رغم أنه يصل إلى 30% في بعض المناطق الأكثر فقرا، وتبلغ نسبة البطالة بين الشباب 34%. أكثر من ثلث العاطلين شباب يحملون شهادات جامعية، وهو الأمر الذي كان قد لعب دورا رئيسيا في الانتفاضة الثورية لعام 2011».

كان هذا الوضع نتيجة للأزمة العميقة للرأسمالية التونسية. لقد اتبعت الحكومات البرجوازية المتوالية ("الإسلامية" منها و"العلمانية" على حدٍ سواء) سياسة السعي للحصول على قروض من صندوق النقد الدولي، والتي جاءت مصحوبة بشروط صارمة: تخفيضات في الإنفاق العام وخصخصة الشركات العمومية ورفع الدعم عن المنتجات الأساسية والتسريحات الجماعية لعمال القطاع العام.

أدت هذه السياسات إلى مفاقمة الأزمة الاقتصادية، وجعلت العمال والفقراء يتحملون العبء الكامل لها، فضلا عن تعميق سيطرة الإمبريالية على البلد.

> **الاقتصاد في حالة ركود. وسجل التضخم 7,5%، وهو أعلى مستوى له منذ ما يقرب من 30 عاما. ما يزال معدل البطالة عند 15% بشكل عام، رغم أنه يصل إلى 30% في بعض المناطق الأكثر فقرا، وتبلغ نسبة البطالة بين الشباب 34%. أكثر من ثلث العاطلين شباب يحملون شهادات جامعية، وهو الأمر الذي كان قد لعب دورا رئيسيا في الانتفاضة الثورية لعام 2011**

كانت هناك، على مدى السنوات العشر الماضية، موجات متكررة من الاحتجاجات الجماهيرية من قبل العمال والشباب ضد الحكومات الضعيفة التي خلفت بعضها البعض. طالبت الثورة التونسية بـ"الشغل والخبز والحرية". وكانت الإطاحة بن علي انتصارا كبيرا حققته الجماهير بالدماء. سقط الطاغية، لكن النظام الرأسمالي بقي على حاله.

ثم ضربت الجائحة ودفعت الاقتصاد إلى حافة الهاوية. انكمش الناتج المحلي الإجمالي لتونس بنسبة 8.6 % العام الماضي، وبـ 03% أخرى في الربع الأول من العام الجاري. انهارت السياحة، التي تعتبر أحد المصادر الرئيسية للعملة الصعبة، وكذلك قطاع التصنيع الموجه للتصدير.

في يناير كانت هناك بالفعل احتجاجات جماهيرية ضد البطالة والفساد وسوء تعامل الحكومة مع الجائحة ومن أجل مناصب الشغل، وما إلى ذلك. كانت الجماهير تطالب "[بسقوط النظام]()" كما فعلت في 2011/2010.

ثم في شهر يونيو، بدأت موجة ثالثة مميتة من الجائحة. أصبح النظام الصحي -الذي تعرض لعقود من الهجمات المتمثلة في نقص النفقات وعشر سنوات من الإصلاحات المضادة والتخفيضات- عاجزا عن استيعاب اعداد المرضى، وصار الناس يموتون في ممرات المستشفيات وأمام أبوابها بسبب نقص الموارد (أسرة العناية المركزة وأجهزة التنفس والأكسجين ومعدات الحماية الشخصية).

اعترف وزير الصحة بأن النظام الصحي قد "انهار". ويعتبر عدد الأشخاص الذين قتلوا بسبب كوفيد 19 (الذي وصل إلى أكثر من 18000 حسب الأرقام الرسمية) من بين أعلى المعدلات في العالم بالنسبة لعدد السكان.

وفي مواجهة هذا الوضع الكارثي ومعدل التطعيم المنخفض للغاية، قررت الحكومة فتح مراكز تطعيم طارئة خلال عيد الأضحى. فاصطف آلاف الأشخاص لساعات تحت أشعة الشمس الحارقة، فقط لكي يطردوا في النهاية بسبب نقص اللقاحات. كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فتمت الدعوة إلى احتجاجات جماهيرية مناهضة للحكومة في 25 يوليوز.

العمال والشباب يدخلون إلى ساحة النضال

نزل العمال والشباب بشكل عفوي إلى الشوارع في جميع أنحاء البلاد. وفي عدة مدن أضرمت الحشود النيران في مقرات حركة النهضة.

الرئيس قيس سعيد، أستاذ القانون والطاغية الطموح والديماغوجي الماهر الذي صعد إلى السلطة على أساس وعود بمكافحة الفساد، استغل الوضع لكي يتدخل مستخدما سلطات الطوارئ لتعليق البرلمان والإطاحة بالحكومة. هناك الكثير من النقاش في وسائل الإعلام الرأسمالية حول ما إذا كانت هذه الخطوة دستورية أم لا. لكن هذا ليس مهما. إن ما يهم حقا هو الميزان الحقيقي للقوى.

من الواضح أن قيس سعيد يحظى بدعم الجيش. فقد تمركزت الدبابات أمام مقر البرلمان. بينما الحكومة لا تتمتع بأي تأييد شعبي ورئيس الوزراء المخلوع لم يبد أي مقاومة، معلنا أنه سيسلم السلطة عن طيب خاطر.

في البداية كان هناك بعض الابتهاج بين المتظاهرين، الذين هتفوا لرؤية الحكومة التي كانوا يناضلون ضدها وقد أسقطت. ورحب البيروقراطيون النقابيون على رأس الاتحاد العام التونسي للشغل بتولي سعيد زمام الأمور. كما أعربت بعض الأحزاب الناصرية عن دعمها له. وهذا موقف خطير للغاية.

كانت حكومة النهضة الرأسمالية المخلوعة مكروهة من طرف الجماهير، لكن قيس سعيد هو أيضا سياسي برجوازي لا ينبغي الوثوق به. لقد كان انتخابه في عام 2019 تعبيرا عن الرفض لكل النظام النابع عن "التحول الديمقراطي".

تميزت الجولة الأولى بالامتناع الشديد عن التصويت وهزيمة كل الأحزاب الحاكمة («العلمانية» منها و«الإسلامية» على حد سواء). فوصل اثنان من "الخارجيين" إلى الجولة الثانية: أحدهما الديماغوجي البرجوازي قيس سعيد والآخر قطب الإعلام الثري القروي، الذي كان خلف قناع المرشح "المستقل" يمثل في الحقيقة مرشحا لنظام بن علي القديم.

صقل الخبير الدستوري، قيس سعيد، صورته برفع شعار "الولاء لشهداء الثورة"، وجمع بين مقترحات لإصلاحات دستورية "ذكية" وبين برنامج رجعي حول القضايا الديمقراطية (مثل المساواة بين الجنسين، ورفع التجريم عن المثلية الجنسية، إلخ).

إنه يمثل محاولة قسم من الطبقة السائدة لتحقيق "النظام والاستقرار"، ووضع حد للجدل السياسي المستمر وتشرذم البرلمان، والرغبة في حكم البلاد بـ"يد قوية وثابتة"... من أجل مصلحة رأس المال.

لم يتضح بعد الدور الذي لعبه اللاعبون الأجانب في انقلاب قيس سعيد، لكنه يمكننا القول على وجه اليقين إن تركيا وقطر، اللتين دعمتا ومولتا النهضة، قد خسرتا.

عارض حزب العمال التونسي (حزب العمال الشيوعي التونسي سابقا) بشكل صحيح استيلاء سعيد على السلطة وذلك في بيان أصدره تحت عنوان: "تصحيح مسار الثورة لا يكون بالانقلابات وبالحكم الفردي المطلق".

واستنكر البيان بشكل صحيح حكومة النهضة المخلوعة لتسببها «في خراب اقتصادي وإفلاس مالي وتفشي الفساد والإرهاب والاغتيالات السياسية وإغراق البلاد في التبعية والمديونية وتدمير كل أركان حياة النساء والرجال التونسيات والتونسيين».

ثم أضاف بشكل صحيح إن: «التغيير المنشود لا يمكن أن يكون بمساندة انقلاب قيس سعيد، ولا بالتحالف مع حركة النهضة بأي عنوان كان».

إلا أنه بعد ذلك دعا الشعب التونسي إلى: «مواصلة التعبير عن مواقفه بالطرق السلمية ورفض دعوات التصادم». كما دعا: «كل القوى الديمقراطية والتقدمية، أحزابا ومنظمات وجمعيات وفعاليات وشخصيات إلى التعجيل بالالتقاء حول آلية للتشاور من أجل صياغة تصور موحد».

ما يتوجب على المنظمة الشيوعية الحقيقية فعله ليس «الدعوة إلى وحدة القوى والشخصيات "الديمقراطية والتقدمية"»، بل أن تدعو العمال والشباب إلى الثقة فقط في قواهم الخاصة، والعمل بشكل مستقل عن جميع الفصائل البرجوازية، مهما حاولت الظهور بمظهر "ديمقراطية وتقدمية".

من أجل حركة ثورية جديدة!

قبل 10 سنوات، عندما أطاحت جماهير العمال والشباب التونسيين بن علي المكروه، كتبنا ما يلي:

« إذا ما أردنا أن تصل الثورة حتى نهايتها المنطقية، والاستجابة لمطلب العمل والكرامة، فيجب أن تتم مصادرة أملاك الطبقة الرأسمالية التونسية، والمصارف والصناعات والشركات التي دعمت ومولت واستفادت من الديكتاتورية. وبهذه الطريقة فقط، يمكن وضع ثروات البلاد، التي يخلقها الشعب العامل، تحت سيطرة هذا الشعب نفسه من أجل تلبية احتياجات الجماهير. لا يمكن إرضاء تطلعات الجماهير التونسية حقا إلا عن طريق ثورة اجتماعية وسياسية أي: الثورة الاشتراكية.».

هنا تكمن مأساة الثورة التونسية. فقد تمت الإطاحة بالديكتاتور لكن النظام الرأسمالي الخاضع للسيطرة الإمبريالية الذي كان يمثله، بقي على حاله. ونتيجة لذلك فإن وضع الجماهير لم يتغير بشكل جذري.

لقد تم تصوير تونس كنموذج "لانتقال ديمقراطي" تم استكماله بمجلس تأسيسي ودستور جديد. كان المعلقون البرجوازيون يخبروننا أن البلد "نموذج نادر للنجاح"، حيث أنه كان البلد الوحيد الذي لم ينحدر إلى حرب أهلية أو عاد إلى الديكتاتورية بعد الربيع العربي.

لكن الشباب ما زالوا عاطلين عن العمل ومجبرين على السير في طريق الهجرة الخطير بحثا عن مستقبل. في ظل الرأسمالية لا يوجد مستقبل ولا كرامة للجماهير العاملة. وهذه بالضبط هي الظروف التي أدت إلى الانتفاضة الثورية في 2011/2010. والآن ازداد الوضع سوءا بسبب تأثير جائحة كوفيد 19 والطريقة الإجرامية التي تعاملت بها الحكومة مع اللقاحات.

لا بد من ثورة جديدة، ثورة تسقط صرح النظام الرأسمالي بأكمله وتعطي للعمال التحكم في زمام الأمور. لقد شهدت تونس ثورة فبراير[1] الخاصة بها، وما يزال الأمر يتطلب ثورة أكتوبر، ولهذا يجب بناء حزب بلشفي.

يجب على العمال والشباب التونسيين ألا يثقوا بأي من السياسيين البرجوازيين. يتطلب "تصحيح مسار الثورة" انتفاضة ثورية جديدة تضع الطبقة العاملة في السلطة وتبدأ التحويل الاشتراكي للمجتمع، عبر: مصادرة أملاك الرأسماليين والشركات متعددة الجنسيات ومحاكمة فلول النظام القديم ورفض أداء الديون واستخدام موارد البلاد لصالح الأغلبية في ظل خطة إنتاج ديمقراطية.

سيكون لمثل هذه الثورة جاذبية قوية بالنسبة للجماهير في جميع أنحاء المنطقة المغاربية، والتي ما تزال، بعد 10 سنوات من الربيع العربي، تتوق لمناصب الشغل والخبز والعدالة.

إن المهمة الأكثر إلحاحا للفئات المتقدمة بين العمال والشباب الثوري التونسيين، والذين أظهروا لأكثر من عقد روحا ثورية غير عادية وبطولة وإصرار كبيرين، هي بناء تيار ماركسي مسلح ببرنامج اشتراكي ثوري واضح يمكنه أن يقود طبقتنا إلى النصر.

خورخي مارتن وأندرياس نورجارد
27 يوليوز/تموز 2021

> ما يتوجب على المنظمة الشيوعية الحقيقية فعله ليس «الدعوة إلى وحدة القوى والشخصيات "الديمقراطية والتقدمية"»، بل أن تدعو العمال والشباب إلى الثقة فقط في قواهم الخاصة، والعمل بشكل مستقل عن جميع الفصائل البرجوازية، مهما حاولت الظهور بمظهر "ديمقراطية وتقدمية".

1: ثورة فبراير وثورة أكتوبر، إحالة إلى الثورتين التين شهدتهما روسيا عام 1917، بحيث أدت ثورة فبراير إلى إسقاط النظام القيصري لكنها وبسبب غياب الوعي والتنظيم من جانب الطبقة العاملة، لم تؤد إلى استيلاء الطبقة العاملة على السلطة مما مكن الحكومة البرجوازية من استلام زمام الأمور دون أن تقدم أي حل للمشاكل العويصة التي كانت تعانيها الجماهير، حتى اندلاع ثورة أكتوبر، بقيادة البلاشفة، والتي أوصلت الطبقة العاملة إلى السلطة. ملاحظة من المترجم.

قضايا نظرية

كومونة باريس (1871)



تمت ترجمة هذا النص عن الترجمة الإنجليزية للمقالة الأصلية التي نشرتها "الثورة" (الفرع الفرنسي للتيار الماركسي الأممي)، تعرض هذه المقالة فكرة عامة عن كومونة باريس: صعودها البطولي ونهايتها المأساوية والدروس المستخلصة منها للثوريين اليوم.

تمثل أحداث كومونة باريس واحدة من أعظم المحطات في تاريخ الطبقة العاملة الفرنسية، فما بين انتفاضة الثامن عشر من شهر مارس/آذار وأحداث الأسبوع الدامي في أواخر شهر مايو/أيار، تم إدارة السلطة في باريس من قبل قيادة عمالية ديمقراطية، حيث حاولوا إعادة هيكلة المجتمع على أسس جديدة دون أي استغلال أو اضطهاد، وتبقى الدروس التي يمكن الخروج بها من تلك الأحداث وثيقة الصلة بواقعنا الحالي.

قبل 20 عام، إستولى نابليون الثالث على السلطة عن طريق انقلاب عسكري في الثاني من ديسمبر/كانون الأول عام 1851. في البداية بدا أن حكمه راسخاً لا يتزعزع، فقد تم قمع كل المنظمات العمالية، ولكن في السنوات الأخيرة من ستينات القرن التاسع عشر ضعف النظام الإمبراطوري بسبب انكماش معدلات النمو الاقتصادي وتداعيات الحروب (في إيطاليا وشبه جزيرة القرم والمكسيك) ونهوض الحركات العمالية، لم يكن هناك مفر من حرب جديدة -ونصر سريع- ليؤخروا سقوط "نابليون الصغير"، وفي يوليو 1870 أعلن نابليون الحرب على بروسيا البسماركية.

الحرب والثورة

تقود الحرب في الكثير من الأحيان إلى الثورة، ولهذا سبب وجيه: فالحرب تنتزع الناس من روتين حياتهم اليومية وتلقي بهم في ساحة الأحداث التاريخية الكبرى، وتتابع جموع الشعب تصرفات قادة الدولة والقيادات العسكرية والسياسيين باهتمام أكبر من أوقات السلام، ويكون هذا الواقع حقيقيا بشدة خاصة في حالة حدوث هزيمة. على كل حال مُنيت الحملة العسكرية التي أطلقها نابليون الثالث بالفشل الذريع، وفي الثاني من سبتمبر/أيلول، تم أسر الإمبراطور ومعه 75 ألف جندي من قبل جيش بسمارك بالقرب من سيدان، وفي باريس انطلقت احتجاجات هائلة للمطالبة بإنهاء الإمبراطورية وإعلان الجمهورية الديموقراطية.

وتحت ضغط الجماهير في الشوارع، أعلنت قوى المعارضة الجمهورية "المعتدلة" تأسيس الجمهورية في الرابع من سبتمبر/أيلول، وتشكيل حكومة "دفاع وطني"، وأعلن وزير الخارجية والبرجوازي الجمهوري جول فافر بأسلوبه الطنان بأنه لن يتم التنازل عن "أي انش واحد من أرضنا أو أي حجر من قلاعنا" للبروسيين.

طوقت القوات الألمانية باريس بسرعة، ووقعت المدينة تحت الحصار. في البدء، قدمت الطبقة العاملة الباريسية الدعم للحكومة الجديدة تحت شعار "وحدة الصف" في مواجهة العدو الخارجي، ولكن الأحداث اللاحقة عملت على تهشيم تلك الوحدة وألقت الضوء على المصالح الطبقية المتضاربة التي كانت تخفيها.

في الحقيقة، لم تؤمن حكومة الدفاع الوطني تلك بإمكانية الدفاع عن باريس ولم ترغب حتى في ذلك، وبالإضافة للجيش النظامي أعلن الحرس الوطني، وهو مكون من قوات شعبية قوامها 200

ألف مقاتل، عن جهازيته للدفاع عن المدينة. لكن في الحقيقة شكل العمال المسلحين داخل باريس خطرا أكبر بكثير على مصالح الرأسماليين الفرنسيين أكثر من أي تهديد يمثله وجود قوات أجنبية على الأبواب.

الحكومة كانت ترى أنه من الأفضل إعلان الاستسلام المشروط بأقصى سرعة ممكنة لبسمارك، ولكن نظراً للروح النضالية للحرس الوطني لم تستطع الحكومة الإعلان عن نواياها. واعتمد الوزير والقائد العسكري الفرنسي تروشو على الآثار الاقتصادية والاجتماعية للحصار لكسر مقاومة العمال البارسيين، وبينما كان يعلن نفسه بأنه الشخص الأمثل للدفاع عن باريس، بدأ في مفاوضات سرية مع بسمارك وذلك من أجل كسب المزيد من الوقت لصالح الحكومة.

زادت عداوة العمال البارسيين اتجاه الحكومة مع مرور الأسابيع، وانتشرت الشائعات عن المفاوضات مع بسمارك، وأطلق سقوط مدينة متز في الثامن من شهر أكتوبر/تشرين الأول الشرارة لتظاهرات حاشدة جديدة. وفي 31 من شهر أكتوبر/تشرين الأول هاجمت عدة فرق من الحرس الوطني مبنى البلدية واستولت عليه لفترة مؤقتة. لكن في تلك اللحظة لم يكن العمال مستعدين بعد لمهاجمة الحكومة بشكل حازم، وبسبب العزلة، فقد العصيان المسلح زخمه بشكل سريع.

كانت عواقب الحصار على باريس كارثية، وأصبح كسره مهمة ملحة. وبعد فشل عملية الانسحاب لقرية بوزنفال في 19 يناير/كانون الثاني 1871، لم يكن أمام الجنرال تروشو سوى الاستقالة. وحل فينوي محله، وأعلن بشكل فوري بأنه أصبح من المحال هزيمة البروسيين، وأصبح من الواضح للجميع إن الحكومة تريد الاستسلام المشروط، وهذا ما فعلته في 27 يناير/كانون الثاني.

الباريسيون والفلاحون

أعطت أصوات الفلاحين في انتخابات الجمعية الوطنية في شهر فبراير الغالبية العظمى للمرشحين المناصرين للمَلكية والمحافظين، وعينت الجمعية الجديدة ادولف تيير -وهو ذو سياسة رجعية صارمة- رئيسا للحكومة، وأصبح الصراع بين باريس والجمعية "الريفية" أمرا محتوما. لكن ظهور خطر القوى المضادة للثورة أعطى المزيد من الزخم للثورة الباريسية. تضاعفت التظاهرات المسلحة للحرس الوطني مدعومة بشكل كبير من قبل الطبقات الأفقر من السكان، وشجب العمال المسلحون تيير وأنصار المَلكية وأعلنوهم خونة ودعوا إلى "حرب شاملة" للدفاع عن الجمهورية.

استفزت الجمعية الوطنية الباريسيين بشكل مستمر، فقد وضع الحصار الكثير من العمال في صفوف العاطلين. وقد كانت التعويضات التي يتم دفعها للحرس الوطني هو كل ما يحول دون حدوث المجاعة. رغم ذلك فقد امتنعت الحكومة عن دفع المخصصات لأي فرد من الحرس لا يستطيع إثبات عدم مقدرته على العمل، وأمر تيير بضرورة سداد كل الديون والإيجارات المتأخرة خلال 48 ساعة، وقد كان وقع تلك السياسات وغيرها أشد بشكل خاص على الطبقات الأفقر، ولكنها أدت أيضًا إلى تثوير الطبقات الوسطى.

أدى استسلام الحكومة لبسمارك والتهديد بإحياء النظام الملكي إلى تحول في الحرس الوطني. تم انتخاب "اللجنة المركزية للحرس الوطني"، ومثلت تلك اللجنة 215 كتيبة مجهزة بـ 2000 مدفع و450 ألف بندقية، وتم إقرار تشريعات جديدة لضمان "الحق المطلق للحرس الوطني لانتخاب قياداته وعزلهم فور خسارتهم لثقة ناخبيهم"، وقد سبقت تلك اللجنة المركزية في الشكل والهيكل القاعدي على مستوى الكتيبة سوفيتات العمال والجنود التي ظهرت خلال الثورتين الروسيتين في عام 1905 و1917.

حصلت القيادة الجديدة للحرس الوطني على الفرصة لاختبار سلطاتها بشكل فوري. بينما كان الجيش البروسي يستعد للبدء في اقتحام باريس، تجمع عشرات الألاف من سكان باريس المسلحين بنية مهاجمة القوات الغازية، فتدخلت اللجنة المركزية لمنع نشوب معركة لم يكن تم الاستعداد لها بعد، وقد أظهرت قدرة اللجنة على فرض قرارها في تلك المسألة أن سلطتها كان مُعترفا بها من قبل غالبية الحرس الوطني وسكان باريس. تلى ذلك احتلال القوات البروسية لجزء من المدينة لمدة يومين ثم انسحابها.

18 مارس

أعطى تيير وعده "للأعضاء الريفيين" في الجمعية بإعادة إحياء المَلكية. لكن مهمته الملحة كانت هي ضرورة وضع نهاية لحالة "ازدواجية السلطة" الموجودة في باريس. فقد مثلت المدافع الخاصة بالحرس الوطني -خاصة تلك الموضوعة في مرتفعات مونمارتر- تهديدا ضد "النظام" الرأسمالي. في 18 مارس على الساعة الثالثة صباحًا تم تعبئة 20 ألف من الجنود وقوات الدَرك وإرسالهم، تحت قيادة الجنرال ليكومت، للاستيلاء على تلك المدافع، وقد تم تأدية تلك المهمة دون أي صعوبة لكن قيادات الحملة لم تأخذ في اعتبارها جلب الوصلات الضرورية لتعشيق المدافع قبل نقلها، وحتى الساعة 7 صباحًا لم يكن قد وصل الفريق الخاص لنقل المدافع بعد. وقد وصف ليبيليتير في كتابه "تاريخ الكومونة" ما حدث بعد ذلك:

«بعدما انطلقت أصوات الإنذار بوقت قصير سمعنا الطبول في شارع كليونكور تدوي بإيقاع السير العسكري. وبسرعة كأنه تغير في مشاهد المسرح: امتلأت كل الشوارع التي تقود إلى التل بحشود صاخبة، كونت النساء أغلبها وكان هناك أطفال أيضًا، ومعهم عدد من أفراد الحرس الوطني مدججين بالسلاح بشكل منعزل، وكانوا كلهم متجهين ناحية شاتو روج».

حاصرت الحشود المتزايدة باستمرار الجنود. وسرعان ما اشتبك سكان الحي وأفراد الحرس الوطني مع رجال ليكومت، وبدأت علامات التضامن بين بعض الجنود والحرس بشكل علني. في محاولة بائسة ليستعيد الجنرال سيطرته ويؤكد سلطته، أمر ليكومت رجاله بإطلاق النار على الحشود، ولكن لم يطلق أحد النار، فتبادل الجنود وأفراد الحرس الوطني هتافات الفرح والعناق. بعدها بقليل ألقي القبض بشكل سريع على ليكومت وكليمنت توماس وتم إعدامهم من قبل الجنود الغاضبين. فقد كان معروفا عن كليمنت توماس قيامه بإطلاق النار على العمال المتمردين في يونيو سنة 1848.

لم يتوقع تيير حدوث انشقاق بين قواته، فأصابه الهلع وهرب من باريس، وأمر الجيش والحكومة بإخلاء باريس والحصون المحيطة بها. كان كل همه إبقاء الجيش بعيدًا عن "العدوى الثورية"، انسحب بعض الجنود -وبعضهم أعلن العصيان بشكل علني، وهتفوا بالشعارات الثورية- بشكل غير منظم إلى فرساي.

ومع انهيار أجهزة الدولة القديمة في باريس، استطاع الحرس الوطني السيطرة على كل المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية في المدينة دون حدوث أي مقاومة تُذكر. لم تلعب اللجنة المركزية أي دور في تلك الأحداث وبالرغم من ذلك اكتشفت اللجنة إنها أصبحت -بالرغم عنها- الحكومة الجديدة الممثلة للنظام الثوري بحكم الأمر الواقع وذلك بفضل القوة المسلحة للحرس الوطني.

تذبذب اللجنة المركزية

رأى غالبية أعضاء اللجنة المركزية أن أول مهمة لهم هي ضرورة التخلص من السلطة، فهم قالوا نحن لا نملك "تفويضا قانونيا" للحكم! وبعد العديد من المناقشات الطويلة، وافقت اللجنة المركزية على مضض على البقاء في مبنى البلدية "لأيام قليلة" يتم خلالها تنظيم الانتخابات المحلية (الخاصة بالكومونة).

مثلت مسألة الجيش، الذي كان مازال في طريقه لفرساي تحت قيادة تيير، بالنسبة للجنة المركزية معضلة يجب النظر إليها بشكل فوري. اقترح اود ودوفال ضرورة زحف الحرس الوطني بشكل فوري اتجاه فرساي، لكسر ما تبقى من القوات تحت إمرة تيير، لكن لم ينصت إليهم أحد. واعتبر أغلب أعضاء اللجنة المركزية أنه من الأفضل "ألا يظهروا كمعتدين". كانت اللجنة المركزية تتكون في أغلبيتها من رجال شرفاء ولكنهم كانوا معتدلين، معتدلين للغاية.

تم استهلاك طاقة اللجنة المركزية في مفاوضات حول موعد وشروط الانتخابات المحلية، واستقروا أخيرًا على يوم 28 مارس. تيير استخدم هذا الوقت

الثمين المهدر لصالحه، فبمساعدة بسمارك تم تعزيز الجيش المقيم في فرساي بالجنود والعتاد من أجل بدء الهجوم على باريس.

وفي عشية الانتخابات، أعلنت اللجنة المركزية للحرس الوطني بيانا استثنائيا يلخص كل قيم التضحية بالذات والنزاهة التي ميزت النظام الجديد:

«لقد انتهت مهمتنا، سنتيح المكان في مبنى البلدية الخاص بنا جميعًا لمثليكم المنتخبين الجدد، لمثليكم الدوريين».

وكانت للجنة المركزية توصية واحدة لإعطائها للناخبين:

«لا تنسوا حقيقة أن الرجال الذين سيخدمونكم بالشكل الأفضل هم هؤلاء الذين ستختارونهم من بينكم، الذين يعيشون نفس حياتكم ويعانون من نفس مصائبكم، احذروا من الطامحين ومحدثي النعمة [...] احذروا من كثيري الكلام قليلي الأفعال [...]».

برنامج الكومونة

حلت الكومونة المنتخبة جديدًا محل قيادة الحرس الوطني كحكومة رسمية لباريس الثورية، ويمكن توصيف الأغلبية من أعضائها التسعون بكونهم "جمهوريين يساريين". مثل مناضلو الرابطة الأممية للعمال (تحت قيادة كارل ماركس وآخرون) والبلانكيين (أناس نشطاء لكنهم مشوشون من الناحية السياسية) معا ربع الأعضاء المنتخبين من الكومونة، أما القليل من الأعضاء المحسوبين على الجناح اليميني فقد استقالوا من مناصبهم تحت مزاعم مختلفة.

تحت إدارة الكومونة تم نزع كل الامتيازات الخاصة بالمناصب العليا لمسؤولي الدولة. بشكل خاص تم وضع تشريعات للحد من رواتبهم بحيث لا تزيد عن رواتب العمال المهرة، وكان من الممكن أيضا عزلهم في أي وقت.

تم تجميد تحصيل الإيجارات ووضعت المصانع المهجورة تحت سيطرة العمال، وأُتخذت الإجراءات الضرورية للحد من ساعات العمل الليلية وضمان توفير الإعاشة الضرورية للفقراء والمرضى. أعلنت الكومونة بوضوح عن رغبتها في «القضاء على المنافسة الفوضوية والمخربة بين العمال والتي تفيد فقط الرأسماليين». وتم فتح صفوف الحرس الوطني لكل الرجال الملائمين للخدمة العسكرية وتم تنظيمه على أسس ديمقراطية صارمة، وتم إعلان الجيوش النظامية "المنفصلة عن الشعب" مؤسسات غير شرعية.

فُصلت الكنيسة عن الدولة وأصبح الدين "مسألة شخصية". تمت مصادرة المنازل والمباني العامة من أجل إسكان المشردين، وتم توفير التعليم العمومي لجميع الناس وفُتحت لهم أيضا الأماكن الخاصة بالثقافة والعلم. أصبح ينظر إلى العمال الأجانب بصفتهم حلفاء في النضال من أجل "الجمهورية العالمية". عقدت الاجتماعات ليلا ونهارا، ناقش فيها الآلاف من الرجال والنساء العاديين كيفية إدارة وتنظيم الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية من أجل "المصلحة العامة". من الواضح إن السمات الرئيسية للمجتمع الجديد قيد التشكل في باريس تقوم على المبادئ الاشتراكية.

الهزيمة

يصح القول بأن الكومونيين قد ارتكبوا العديد من الأخطاء. لامهم كل من ماركس وانجلز -وهما محقان في ذلك- على عدم الاستيلاء على بنك فرنسا، الذي استمر في توفير الملايين من الفرنكات لتيير، والتي استخدمها جيدا في تسليح وإعادة تنظيم صفوف قواته.

ارتكبت الكومونة خطأ فادحا آخر فهي قللت من أهمية الخطر القادم من فرساي بشكل كبير. فهي لم تكتفي فقط بعدم محاولة الهجوم على فرساي -على الأقل حتى الأسبوع الأول من شهر ابريل- لكنها لم تجهز بشكل جدي الدفاعات اللازمة ضد أي هجوم محتمل. وفي الثاني من أبريل تمت مهاجمة فصيل من قوات الكومونة وهو متجه إلى كوربفوا وتم إجباره على التراجع إلى باريس، وأعدمت قوات تيير الأسرى. في اليوم التالي وتحت الضغط من الحرس الوطني أطلقت الكومونة هجومها على فرساي، ولكن رغم حماسة كتائب الكومونة، حكمت قلة الخبرة العسكرية والاستعداد السياسي على الحملة المتأخرة بالفشل، فقد اعتقد قادة الكومونة بأن الجيش الخاص بفرساي سينضم للكومونة بمجرد مشاهدته للحرس الوطني كما حدث في 18 مارس، ولكن هذا لم يحدث.

تسببت تلك النكسة في اجتياح الروح الانهزامية عموم باريس. فقد حل الشعور بالهزيمة الحتمية محل التفاؤل الحماسي للأسابيع الأولى من عمر الكومونة، وبرزت الانقسامات الموجودة في كافة مستويات القيادة العسكرية. وفي 21 مايو دخل جيش فيرساي باريس، وفي تلك اللحظة الهامة افتقدت الكومونة أي خطة استراتيجية جديدة. بكل بساطة اختفت وتخلت عن كل مسؤولياتها لصالح لجنة الأمن العام عديمة الجدوى.

تمركزت قوات الحرس الوطني "في ثكناتها" دون وجود أي قيادة مركزية. ساهم هذا القرار في منع تركيز جهود قوات الكومونة لصد هجوم قوات فرساي. قاتلت الكومونيون بشجاعة كبيرة، ولكن تدريجيا تم دفعهم للجزء الشرقي من المدينة وفي النهاية هُزموا في 28 من مايو. تم إطلاق النار على أخر المقاومين من الكومونة في الدائرة العشرين في باريس على حائط الكومونة، والذي يمكن مشاهدته حتى الآن في مقبرة بير لاشيز. قتلت قوات تيير ما لا يقل عن 30 ألف من الرجال والنساء والأطفال فيما عُرف "بالأسبوع الدامي"، وقتلوا ما يعادل 20 ألف ضحية في الأسابيع التالية.

الدولة العمالية

مثلت كومونة باريس أول حكومة عمالية في التاريخ. في كتابه "الحرب الأهلية في فرنسا" قال ماركس إن أحداث الكومونة أثبتت الآتي: «لا يجب أن يكتفي العمال بالاستيلاء على أجهزة الدولة القائمة وإدارتها كما هي، فالشرط الأول للحفاظ على السلطة السياسية هو تحطيم أداة السلطة الطبقية». حاول عمال الكومونة بناء الدولة الجديدة -الدولة العمالية- على أنقاض الدولة الرأسمالية في باريس، وأثناء قيامهم بذلك وضعوا السمات الأساسية للدولة العمالية: لا توجد بيروقراطية، لا يوجد جيش نظامي منفصل عن الشعب، لا توجد امتيازات للمسؤولين، حق عزل وانتخاب المسؤولين، وغيرها.

لم يملك عمال الكومونة الوقت لتعزيز سلطتهم، وساهمت عزلتهم -في فرنسا الريفية بشكل كبير في ذلك الوقت- في تلك النهاية المحتومة. ولكن اليوم، على العكس من ذلك، فإن أغلبية المجتمع من العمال المأجورين. الأسس الاقتصادية للثورة الاشتراكية أكثر نضجا مما كانت عليه في القرن التاسع عشر. هذه هي المهمة التي تركت لنا، أن نخلق المجتمع الاشتراكي الديمقراطي الحر الذي ناضل وقُتل من أجله عمال الكومونة.

الثورة: جريدة الفرع الفرنسي للتيار الماركسي الأممي
13 مارس/آذار 2021



الماركسية ضد فلسفة ما بعد الحداثة

ما بعد الحداثة مدرسة فلسفية بدون هوية محددة، برزت خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد أن بدأت باعتبارها اتجاها هامشيا، نمت منذ ذلك الحين لتصبح واحدة من المدارس المهيمنة في الفلسفة البرجوازية، متغلغلة في أجزاء كبيرة من الأوساط الأكاديمية اليوم، إن لم نقل أغلبها. وننشر هنا الترجمة العربية لهذا المقال المهم الذي يحلل من منظور ماركسي جوانب مختلفة من فلسفة ما بعد الحداثة، والذي نشر في العدد الأول لمجلة «الدفاع عن الماركسية»، المجلة النظرية الجديدة للتيار الماركسي الأممي.

لقد عرف تاريخ الفلسفة مجموعة واسعة من المدارس والمدارس الفرعية والاتجاهات، التي تشمل مجموعة متنوعة من التصورات للعالم والمبادئ التوجيهية. لكن ضمن هذا العدد الهائل من الاتجاهات، بعضها عقلاني ومادي، وبعضها الأخر مثالي وصوفي إلى حد بعيد، كان هناك على الأقل اتفاق عام على أن السمة المميزة لأي نظرية عظيمة هي الاتساق والدقة والاهتمام الدقيق بالتفاصيل. ومهما كان الشكل الذي تعبر به الفلسفة، فإنها قد كانت في التحليل الأخير نضالا من أجل الحقيقة. حتى الفلاسفة الأكثر رجعية كان عليهم أن يعترفوا بهذا على الأقل. فحتى أوغسطينوس، الذي شكلت نظريته عن التنوير الإلهي العمود الفقري الأيديولوجي لرجعية العصور الوسطى المظلمة، حاول، على الأقل، تصوير حججه على أنها متماسكة وعقلانية.

كم تغير الزمن. ففي مرحلة الانحطاط الرأسمالي، دخلت الفلسفة بدورها سيرورة تراجع. وأوضح تعبير عن هذا الاتجاه هو فلسفة ما بعد الحداثة. على مدى نصف القرن الماضي أو أكثر، كان هذا الاتجاه ينتشر ببطء مثل الفيروس في جميع أنحاء العالم، ويقفز من بلد إلى آخر، ويتحول باستمرار إلى أشكال جديدة وأكثر فأكثر غرابة. وقد نتجت عنها صناعة من المدارس الفرعية والاتجاهات مثل نظرية ما بعد الاستعمار ونظرية الكوير والعديد من أشكال النسوية وغيرها، والتي تهيمن، سواء بأشكال واضحة أو مقنعة، على العلوم الاجتماعية والأوساط الأكاديمية اليوم.

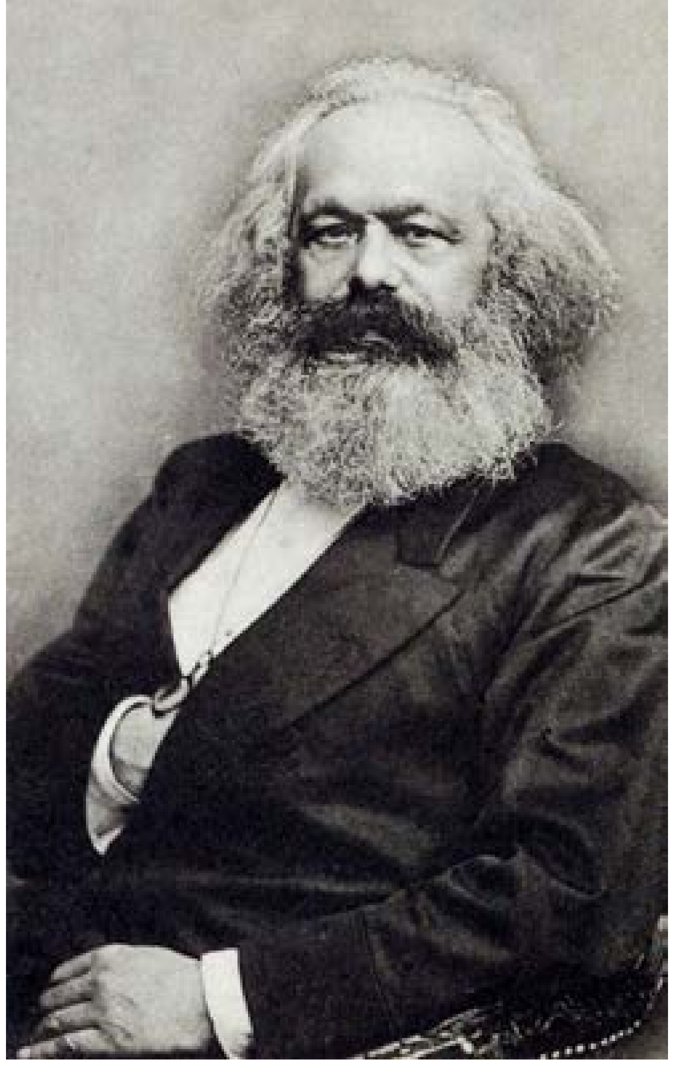
في عالم فلسفة ما بعد الحداثة يُنظر إلى أعظم العقول في التاريخ بازدراء ويتم نبذهم بشكل مهين. العقل مدان، في حين يتم رفع اللاعقلانية وعدم الوضوح إلى مستوى المبدأ. تتم مواجهة النزاهة النظرية والسعي وراء الحقيقة بتحفظات لامتناهية ولغة غامضة وغير مفهومة. وفيما يلي مثال ممتاز عن هذا:

«الأهم من اليسارية السياسية، الأقرب إلى تنافس الكثافات: هناك حركة واسعة تحت السطح، تضطرب، وهي في الواقع أكثر من مجرد اضطراب، والتي بسببها قانون القيمة غير صالح. وقف الإنتاج، عمليات الاستيلاء بدون تعويض كطرق للاستهلاك، رفض "العمل"، المجتمعات (الوهمية؟)، الأحداث، حركات التحرر الجنسي، المهن، الخضوع، عمليات الاختطاف، إنتاج الأصوات والكلمات والألوان، بدون نية فنية. هؤلاء هم "رجال الإنتاج"، "سادة اليوم": المهمشون، الرسامون التجريبيون، عازفو البوب، الهيبيز والييبيس، الطفيليون، والمجانين والمرضى النفسيين المتخلى عنهم. ساعة واحدة من حياتهم توفر كثافة أكبر ونية أقل من 300.000 كلمة لفيلسوف محترف».[1]

لا نعرف ما إذا كانت ساعة من حياة المهمشين، أو الرسامين التجريبيين، أو عازفي البوب، أو الهيبيز، أو الييبيس، أو الطفيليين أو المجانين أو والمرضى النفسيين المتخلى عنهم، يمكنها أن تقدم قدرا أكبر من الكثافة من كلمات "فيلسوف محترف" غير محدد. لكنه من الواضح بالتأكيد، حتى من هذا المقتطف الموجز، أن خمس دقائق فقط من حياة أي شخص تساوي أكثر بكثير من 300.000 كلمة لهذا الفيلسوف بالذات.

يطرح فلاسفة ما بعد الحداثة، دون أن يبتسموا حتى، أكثر الادعاءات والاقتراحات سخافة وإثارة للضحك. زعم جان بودريار، على سبيل المثال، **أن الواقع قد اختفى الآن**، ومعه [اختفت] **كل المعاني**. ولتوضيح موقفه، استشهد بكلمات إلياس كانيتي (وضخمها) باستحسان واضح، حيث قال:

«بعد لحظة معينة من الزمن، لا يبقى التاريخ حقيقيا. لقد ترك الجنس البشري كله الواقع وراءه دون أن يدرك ذلك. لا شيء مما حدث منذ ذلك الحين صحيح، لكننا غير قادرين على إدراك ذلك. ومهمتنا وواجبنا الآن هو اكتشاف هذه النقطة، وإلا فإننا، طالما فشلنا في استيعابها، سنكون محكومين بالاستمرار في مسارنا المدمر الحالي».[2]



قد يشعر القارئ بأنه يحق له طرح سؤال: ما الذي يعنيه هذا؟ لكن هذا السؤال قد تمت الإجابة عنه مسبقا: فبما أن **الواقع قد اختفى الآن**، ومعه **كل المعاني**، فلا داعي للبحث عن أي معنى على الإطلاق. هذه طريقة لها ميزة لا شك فيها وهي استبعاد أي أسئلة محرجة مسبقا. إنها تسكت كل نقد ممكن، وتقضي، في الواقع، على أساس الفكر العقلاني بشكل عام.

هذه الطريقة في الحجاج، التي يتم تقديمها كشيء جديد، هي -مثلها مثل أي جانب آخر من جوانب ما بعد الحداثة- ليست جديدة ولا أصيلة. إنها ليست سوى اجترار للحجة القديمة لترتليان في القرن الثالث، الذي برر سخافات العقيدة المسيحية

مـن خـلال القـول: "Credo quia absurdum est" ("أؤمـن بهـا، لأنهـا سـخيفة").

إن هـذا الميـل إلى السـخافة يأخذنـا، في الواقـع، إلى لـب فكـر مـا بعـد الحداثـة، الـذي يرفـض كل تفكـير عقـلاني. دولـوز وغوتـاري، اللـذان غالبـا مـا يصـوران على أنهـما "الجنـاح اليسـاري" لمـا بعـد الحداثـة، ينتقـلان بهـذه السـخافات إلى مسـتوى جديـد تمامـا:

«يصبـح الجوهـر الإنسـاني للطبيعـة والجوهـر الطبيعـي للإنسـان واحـدا داخـل الطبيعـة في شـكل إنتـاج أو صناعـة، تمامـا كـما يحـدث في حيـاة الإنسـان كنـوع. وبالتـالي لم يعـد يُنظر إلى الصناعـة مـن وجهـة النظـر الخارجيـة للمنفعـة، بـل بالأحـرى مـن وجهـة نظـر هويتهـا الأساسـية مـع الطبيعـة كنتـاج للإنسـان وبواسـطة الإنسـان. ليـس الإنسـان كخالـق، بـل بصفتـه الكائـن الـذي هـو عـلى اتصـال وثيـق بالحيـاة العميقـة لجميـع أشـكال الكائنـات أو جميـع أنواعهـا، والـذي هـو **مسـؤول حتـى عـن النجـوم والحيـاة الحيوانيـة، والـذي يحـول بشـكل دائـم آلـة عضويـة إلى آلـة طاقيـة، شـجرة في جسـده، صـدر في فمـه، شـمس في مؤخرتـه: الحـارس الأبـدي لآلات الكـون**. هـذا هـو المعنـى الثـاني للسـيرورة حسـب اسـتعمالنا للمصطلـح: الإنسـان والطبيعـة ليسـا متعارضـين».[3]

وقـد سـارع ميشـيل فوكـو، الـذي هـو صديـق مقـرب لدولـوز وغوتـاري، للثنـاء عـلى هـذا الهـراء قائـلا: «... لقـد نشـأت عاصفـة رعديـة سـتحمل اسـم دولـوز: فكـر جديـد ممكـن، التفكـير صـار ممكنـا مـرة أخـرى».[4]

إذن الآن نحـن نعلـم! يبـدو أنـه كان من المسـتحيل كليـا التفكـير إلى أن أنارنـا السـيد دولـوز بلآلـئ الحكمـة هـذه.

إن أدبيـات مـا بعـد الحداثـة كلهـا مليئـة بهـذا الخطـاب الطنـان والمغـرور والمـليء بالحشـو الفـظ، الـذي يوفـر غطـاء لنظرياتهـم السـخيفة. لكـن هـذا الشـخص يجـب أن يحصـل عـلى الجائـزة، إذ أنـه الآن، بعـد قـراءة السـطور أعـلاه، صـار في إمـكان البشريـة جمعـاء أن تتنفـس الصعـداء: **يمكننـا جميعـا أن نبـدأ في التفكـير**.

لكـن هـا هـي المشـكلة: مـا الـذي يفـترض بنـا أن نفكـر فيـه بالضبـط؟

تعريف ما لا يمكن تعريفه

مـن المؤكد أن الفلسـفة التـي تدعـي لنفسـها مثل هـذه المهـام الكـبرى هـي فلسـفة تسـتحق الاهتـمام. لذلـك سنسـلح أنفسـنا بالصـبر وسـنبذل قصـارى جهدنـا لفهـم أي معنـى يمكـن العثـور عليـه فيهـا. مـا هـي بالضبـط مـا بعـد الحداثـة، ومـا الـذي يكمـن وراءهـا؟ نصطـدم هنـا عـلى الفـور مـع المشـكلة الأولى. قيـل لنـا إنـه لا يمكـن تعريفهـا. إنهـا فكـرة بحكـم طبيعتهـا تعـارض التعريفـات. حتـى الآن، لا يوجـد شيء واضـح.

تمـت صياغـة مصطلـح "مـا بعـد الحداثـة" لأول مـرة في عـام 1979، مـن قبـل جـان فرانسـوا ليوتـار، والـذي عرّفهـا عـلى أنهـا، بعـد "التبسـيط إلى أقـصى الحـدود"، عـلى حـد قولـه، "**الشـك في السرديـات الكـبرى**".[5] ويعـرّف قامـوس أكسـفورد الإنجليـزي "السرديـات الكـبرى" عـلى أنهـا «وصـف شـامل أو تفسـير شـامل للأحـداث والظـروف يوفـر نمطـا أو بنيـة لمعتقـدات النـاس ويعطـي معنـى لتجاربهـم».

لكـن مهـلا! أليـس تعريـف ليوتـار الخـاص هـو أيضـا: ... **سرديـة كـبرى**؟ بالطبـع، إنـه كذلـك بالضبـط. فعندمـا يخبرنـا أنـه يجـب علينـا أن نتجنـب، بـأي ثمـن، التفكـير بطـرق معينـة لا يوافـق عليهـا، ألا يكـون بصـدد تزويدنـا بنظريـة عامـة، أي بوصـف شـامل أو تفسـير شـامل للأحـداث والظـروف؟ ومـن خـلال إخبارنـا أنـه يجـب نبـذ بعـض الأفـكار، ألا يكـون بصـدد تزويدنـا أيضـا "بنمـط أو بنيـة لمعتقـدات النـاس، ويعطـي معنـى لتجاربهـم"؟

الإجابـة عـلى كلا السـؤالين بشـكل قاطـع هـي الإيجـاب. ولذلـك، فـإن جـان فرانسـوا ليوتـار يقـف متهـما منـذ البدايـة إمـا بالتناقـض السـخيف مـع الـذات، أو بالاحتيـال الفاضـح. نحـن أمـام إمـا أحمـق أو محتـال، أو ربمـا كلاهـما، مـن الصعـب أن نحـدد.

"لا تقدم"؟

فلاسـفة مـا بعـد الحداثـة معروفـون أيضـا برفضهـم لمفهـوم التقـدم في التاريـخ. إنهـم يزعمـون أن تطـور العلـم والفلسـفة لا يعـرف أي تقـدم، وأن هنـاك فقـط طـرق مختلفـة لتفسـير العـالم. وعـلاوة عـلى ذلـك فإنـه عـالم لا يتوافـق حتـى مـع تفسـيراتنا لـه. ومـع ذلـك فـإن مـا بعـد الحداثيـين يقدمـون مدرسـتهم الفكريـة عـلى أنهـا المدرسـة الوحيـدة التـي يمكنهـا تفسـير هـذا الموقـف. إذا قبلنـا وجهـة النظـر هـذه، فـإن كل الأفـكار سـتكون جيـدة، سـواء كانـت تنبـع مـن عقـل شـامان مـن العـصر الحجـري، أو أرسـطو أو آينشـتاين أو ماركـس. لم يتخـذ فهـم الإنسـانية للطبيعـة والمجتمـع أبـدا أي خطـوة إلى الأمـام، بـل في الواقـع لا يوجـد "أمـام" عنـد فلاسـفة مـا بعـد الحداثـة. لا شيء تقدمـي، باسـتثناء، بالطبـع، مـا بعـد الحداثـة نفسـها، التـي ظهـرت منتـصرة الآن فقـط، لـكي تفضـح هـذا الوهـم الأزلي المتمثـل في الإيمـان بالتقـدم!

هنـاك شيء واحـد يمكننـا أن نتفـق معـه، وهـو أنـه مـن الأكيـد أنـه في ظـل النظـام الرأسـمالي، في مرحلـة احتضارهـا، لا يمكـن تحقيـق أي تقـدم جـدي للجنـس البـشري. لكـن هـل يحـق لنـا أن نسـتنتج مـن هـذا أن التقـدم بشـكل عـام غـير موجـود، أو أن التاريـخ لم يشـهد أوقاتـا اتخـذ فيهـا خطـوات عملاقـة إلى الأمـام؟ كلا، لا يحـق لنـا فعـل شيء مـن هـذا القبيـل. إن كل مـن يـدرس المـاضي سـيرى عـلى الفـور أن المجتمـع البـشري قـد عـرف مراحـل مـن التقـدم العظيـم، تميـزت بالتطـور السريـع لقـوى الإنتـاج والعلـم والتكنولوجيـا، وازدهـار الفـن والثقافـة.

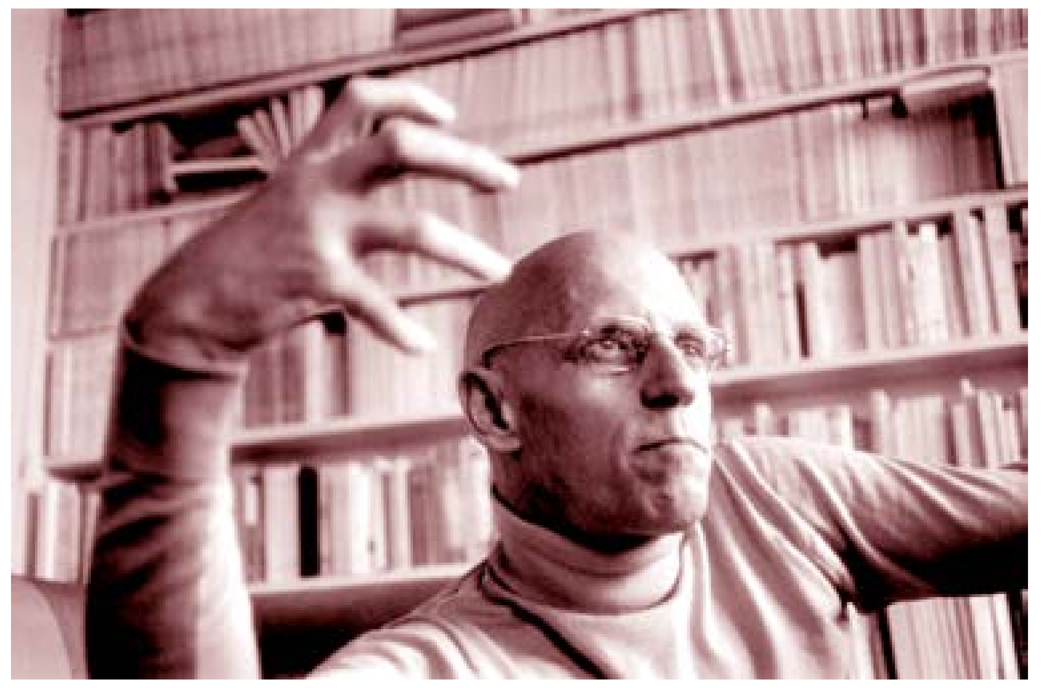
كـما أنـه يعـرف مراحـل أخـرى تميـزت بالركـود والتراجـع والانحـلال، بـل وحتـى السـقوط في الهمجيـة. كان سـقوط الإمبراطوريـة الرومانيـة بدايـة لمئات السـنين مـن التراجـع في أوروبـا، وهـو مـا أطلـق عليـه عـن حـق اسـم العصـور المظلمـة. كان عـصر النهضـة بمثابـة نقطـة تحـول في تطـور الثقافـة في كل المجـالات، حيـث شـهد كل مـن الفـن والعلـم والأدب ولادة جديـدة عظيمـة (المعنـى الحـرفي لمصطلـح "عـصر النهضـة"). كان ذلـك عـصر صعـود البرجوازيـة، حاملـة مرحلـة جديـدة وأعـلى مـن مراحـل المجتمـع البـشري، عـصر الاكتشـاف الـذي أنقـذ البشريـة مـن قيـود الإقطـاع، كـما أنقذهـا مـن الظلاميـة اللاعقلانيـة للكنيسـة ونـيران محاكـم التفتيـش.

في وقـت لاحـق، أنتجـت البرجوازيـة الثوريـة في فرنسـا عـصر التنويـر، الـذي ينظـر إليـه فلاسـفة مـا بعـد الحداثـة ببغـض خـاص، وذلـك عـلى وجـه التحديـد لأنـه دافـع عـن الفكـر العقـلاني والعلـم. وكـما يوحـي بذلـك اسـمها، فـإن مـا بعـد الحداثـة تعتقـد أن مـا يسـمى الحداثـة قـد انتهـى الآن. الحداثـة هـي مجموعـة الأفـكار التـي انبثقـت عـن عـصر التنويـر. كانـت تلـك هـي الحقبـة البطوليـة للرأسـمالية، عندمـا كانـت البرجوازيـة مـا تـزال قـادرة عـلى لعـب دور تقدمـي. لكـن الحقبـة الحاليـة تقـدم صـورة للانحطـاط الاجتماعـي والاقتصـادي والسـياسي والأيديولوجـي. لقـد توقـف التقـدم البـشري بالفعـل. وقـوى الإنتـاج مشـلولة بسـبب أعمـق أزمـة منـذ ثلاثمائـة عـام. الثقافـة راكـدة، وثمـار العلـم عـوض أن تحـرر البشريـة، صـارت تهددهـا بالبطالـة الجماهيريـة والكارثـة البيئيـة. لقـد أصبحـت الطبقـة الرأسـمالية عقبـة هائلـة أمـام التقـدم.

إن منظـور الإنسـانية ومسـتقبلها قائـم حقـا عـلى أسـاس النظـام الحـالي. لكـن وبـدلا مـن الاسـتنتاج أن النظـام الاجتماعـي للرأسـمالية هـو الـذي يمنـع التقـدم، يسـتنتج مـا بعـد الحداثيـون أن التقـدم نفسـه مسـتحيل، لأنـه أبـدا لم يوجـد أصـلا. إن الطبقـة السـائدة وأتباعهـا مـن الطبقـة الوسـطى في الجامعـات مشـبعون بـروح التشـاؤم. إنهـم يتأوهـون مـن الحالـة الفظيعـة للمجتمـع، لكنهـم مـن خـلال رفضهـم للعلـم والفكـر العقـلاني والتقـدم بشـكل عـام، يعكسـون فقـط منظـور الطبقـة السـائدة المنحطـة والمتحللـة.

خداع

قـال جوزيـف ديتزجـن ذات مـرة إن الفلسـفة الرسـمية ليسـت علـما، بـل "هـي مجـرد أداة للتصـدي للاشـتراكية". -ومـن خـلال مصطلـح الاشـتراكية الديموقراطيـة كان ديتزجـن يقصـد الحركـة الثوريـة للطبقـة العاملـة. إن مهمـة الأفـكار السـائدة اليـوم هـي بالتحديـد سـتر الهـوة بـين مصالـح الجماهـير وبـين الوضـع الراهـن للرأسـمالية. هـذا هـو الأسـاس الكامـن وراء الحيـل والمغالطـات والخـداع الشـديد الـذي يميـز الفلسـفة البرجوازيـة بشـكل عـام ومـا بعـد الحداثـة بشـكل خـاص. ومـن بـين تلـك الحيـل هنـاك اللجـوء المتواصـل إلى التصريحـات المتناقضـة مـن أجـل التسـتر عـلى معناهـا. وفي مقابلـة أجريـت مـع فوكـو عـام 1977، ونـشرت تحـت عنـوان "Prison Talk"، واجـه فوكـو سـؤالا مباشـرا محرجـا حـول رفضـه لمفهـوم "التقـدم".



هـذا مقتطـف مـن تلـك المقابلـة:

«صادفـت جملـة في كتـاب "الجنـون والحضـارة" [الاقتباس مأخـوذ، في الواقـع، من "تاريـخ الجنـون"- ملاحظـة المحـرر] حيـث تقـول إنـه يجـب علينـا "تحريـر التسلسـل الزمنـي التاريخـي والترتيبـات المتعاقبـة مـن جميـع أشـكال المنظـور التقدمـي"».

وقد أجاب فوكو على النحو التالي:

«هـذا شيء أنـا مديـن بـه لمؤرخـي العلـوم. إننـي أتبنـى الحـذر المنهجـي والشـك الراديـكالي لكـن غـير العـدواني الـذي يتبنـى مبـدأ عـدم اعتبـار النقطـة الزمنيـة التـي نقـف فيهـا الآن عـلى أنهـا نتيجـة لتقـدم غـائي (Teleological) الـذي سـيكون مـن شـأن المـرء إعـادة بنائـه تاريخيـا: هـذا الشـك تجـاه أنفسـنا ومـا نحـن عليـه، هنـا والآن، هـو مـا يمنـع المـرء مـن افـتراض أن مـا لدينـا هـو أفضـل مـن -أو أكـثر مـن- المـاضي. هـذا لا يعنـي عـدم محاولـة إعـادة بنـاء السـيرورات التوليديـة، بـل أنـه يجـب علينـا القيـام بذلـك دون أن نفـرض عليهـا قيمـة إيجابيـة أو تثمـين».[6]

إذا بذلنـا جهـدا لاخـتراق العـالم الغامـض للغـة الفوكوليـة، فإننـا سـنرى أن رفضـه لفـرض "التثمـين" عـلى "السـيرورات التوليديـة" للتاريـخ ليـس سـوى رفـض للتقـدم. وفي محاولـة مـن محـاولات الخـداع الكلبيـة، يعمـل عـلى إدخـال مصطلـح "غـائي" كوسـيلة لإدخـال الغمـوض عـلى القضيـة.

أي شـخص لديـه أدنى معرفـة بالفلسـفة يعـرف أن هنـاك اختلافـا كبـيرا بـين الغائيـة (Teleology) –وهـي عبـارة ذات دلالات دينيـة، وتعنـي وجـود غايـة محـددة مسـبقا، والتـي عارضهـا ماركـس بشـدة- وبـين فكـرة أن التاريـخ البـشري ليـس سلسـلة مـن الحـوادث العرضيـة التـي لا معنـى لهـا، بـل تحكمـه قوانـين معينـة تؤكـد نفسـها بشـكل مسـتقل عـن الإرادة الذاتيـة للأفـراد مـن الرجـال والنسـاء.

لكـن المحـاور، الـذي لم يستسـلم بسـهولة، طـرح عـلى فوكـو السـؤال التـالي: «هـذا عـلى الرغـم مـن أن العلـم قـد تبنـى منـذ أمـد طويـل فرضيـة أن الإنسـان يتقـدم؟»

فأجاب فوكو:

«ليـس العلـم هـو الـذي يقـول ذلـك، بـل تاريـخ العلـم. وأنـا لا أقـول إن الإنسـانية لا تتقـدم. مـا أقولـه هـو إنهـا طريقـة سـيئة أن يتـم طـرح المسـألة عـلى النحـو التـالي: "كيـف تقدمنـا؟"، المسـألة هـي: كيـف تحـدث الأشـياء؟ ومـا يحـدث الآن ليـس بالـضرورة أفضـل، أو أكـثر تقدمـا، أو مفهومـا بشـكل أفضـل، مـما حـدث في المـاضي».

نـرى هنـا حالـة كلاسـيكية للسـير في كل الطـرق في نفـس الوقـت. فبعـد أن قـال بوضـوح (أو بذلـك القـدر مـن الوضـوح الـذي تسـمح بـه لغتـه الغريبـة) إنـه ينكـر التقـدم في التاريـخ، عـاد بهـدوء ليؤكـد **عكـس** ذلـك: إنـه لا يقـول إن "الإنسـانية لا تتقـدم". لكنـه في اللحظـة الموالـية يضيـف أن: "مـا يحـدث الآن ليـس بالـضرورة أفضـل، أو أكـثر تقدمـا، أو مفهومـا بشـكل أفضـل، مـما حـدث في المـاضي". وبالتـالي فإنـه **ليـس هنـاك تقـدم حقيقـي**.

هل هذا واضح بما فيه الكفاية؟

هـذا مثـال جيـد جـدا عـلى كيـف يقـوم هـؤلاء السـيدات والسـادة بالالتفـاف والتأرجـح، واللعـب بالكلـمات لإخفـاء مقاصدهـم، تمامـا كـما ينفـث الحبـار سـحبا مـن الحـبر لإربـاك أعدائـه. وبالتـالي فـإذا مـا أتهـم أي شـخص فوكـو بإنـكار التقـدم، وهـو مـا يشـكل النقطـة المحوريـة لغالبيـة كتاباتـه، فيمكنـه دائمـا الـرد والقـول: «كلا، لقـد قلـت ذات مـرة: "لا أقـول إن الإنسـانية لا تتقـدم"».

إن الخـداع الفكـري والجـبن مكونـان أساسـيان لفلسـفة مـا بعـد الحداثـة. إنهـا تتبنـى مجموعـة كاملـة مـن المنـاورات لإربـاك القـارئ والتشـويش عليـه، مـن أجـل تشـتيت انتباهـه عـن طابعهـا الرجعـي الحقيقـي. والعجيـب هـو الغطرسـة الوقحـة والجـرأة التـي يعـرض بهـا هـذا الخـداع.

ألعاب اللغة

«لمـاذا، أحيانـا أصـدق مـا يصـل إلى سـتة أشـياء مسـتحيلة قبـل الإفطـار». (لويـس كارول، أليـس في بـلاد العجائـب).

تقـوم فلسـفة مـا بعـد الحداثـة عـلى مبـدأ أن المفاهيـم والأفـكار واللغـة "بنيـات" ذاتيـة وتعسـفية. وبالتـالي فـإن كل فكـرة مفاهيميـة، بمـا في ذلـك العلـم، هـي أيضـا قمعيـة. لا يمكـن أن يكـون هنـاك أي حقيقـة موضوعيـة. لا شيء صحيـح أو موثـوق. الحقيقـة الوحيـدة تكمـن في التجربـة الفرديـة، "التجربـة المعاشـة"، والتـي لا يمكـن أن تكـون إلا حقيقـة شـخصية.

لا يكتفـي بعـض مـا بعـد الحداثيـين بإلقـاء كل الفكـر العقـلاني و"السرديـات الكـبرى" في سـلة المهمـلات، بـل يذهبـون إلى حـد إبلاغنـا أنـه، بمـا أن اللغـة بنـاء قمعـي، فإنـه يجـب إلغـاء النحـو نفسـه لأنـه قامـع لحريـة الإنسـان. وبمجـرد أن نتحـرر مـن قيـود النحـو والإعـراب القمعيـة، سـيصير في إمكاننـا أن نعيـش في جنـة الحريـة المطلقـة، حيـث يمكننـا التواصـل مـع بعضنـا البعـض بطريقـة جديـدة تمامـا.

لكـن اللغـة ليسـت بنـاء. لم يخترعهـا أحـد، بـل تطـورت تدريجيـا عـلى مـدى مراحـل زمنيـة طويلـة جـدا، عـلى مـدى مئـات الآلاف مـن السـنين في الواقـع، نتيجـة لتطـور المجتمـع البـشري. وينطبـق هـذا أيضـا عـلى قوانـين التفكـير التـي يرغـب مـا بعـد الحداثيـين في تدميرهـا. لكـن بمـاذا سـيتم اسـتبدالها؟ قـد نحـب أو نكـره قواعـد النحـو والإعـراب، سـواء كانـت قواعـد اللغـة الرسـمية التـي يتـم تدريسـها في المـدارس أو غـير الرسـمية مثـل اللهجـات؛ لكـن بـدون هـذه القواعـد، يصبـح الـكلام غـير مفهـوم، أو عـلى الأقـل غـير متماسـك. لكـن مـا بعـد الحداثيـين لديهـم بالطبـع مسـمار لـكل ثقـب.

وردا عـلى الاتهـام بعـدم الوضـوح، شـجبت جوديـث بتلـر، وهـي مؤمنـة حقيقيـة بفلسـفة مـا بعـد الحداثـة، «تَعَلُّـم القواعـد التـي تحكـم الـكلام الواضـح»[7]. ووفقـا لبتلـر فـإن تعلـم مثـل هـذه القواعـد هـو «إنغـراس في اللغـة الطبيعيـة، حيـث يكـون ثمـن عـدم الانضبـاط هـو فقـدان الوضـوح بحـد ذاتـه». وتابعـت قائلـة: «لا يوجـد شيء راديـكالي في الـذوق العـام. سـيكون مـن الخطـأ الاعتقـاد بـأن القواعـد النحويـة المعطـاة هـي أفضـل وسـيلة للتعبـير عـن وجهـات النظـر الراديكاليـة، بالنظـر إلى القيـود التـي تفرضهـا قواعـد النحـو عـلى الفكـر، في الواقـع، عـلى مـا يمكـن التفكـير فيـه نفسـه».

الآن صرتـم تعرفـون! "الـذوق العـام" ليـس راديكاليـا، لكـن الهـراء راديـكالي. وعـلى هـذا الأسـاس، تنطلـق بتلـر في رحلـة لتكويـن قواعدهـا النحويـة الخاصـة بهـا، والتـي بطريقـة مـا لا "تفـرض" نفسـها

على أفكارها. وبعد أن قامت بذلك، تنخرط في جميع أنواع المغامرات، وتفكر في أشياء "لا يمكن تصورها" تماما بالنسبة لمن هم مثلنا المقيدون بلغة البشر العاديين.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف ستتمكن من **إيصال** هذه الأفكار التي **لا يمكن تصورها** إلى البشر العاديين، الذين ما يزالون مقيدين بقيود "الكلام المفهوم" والذين ليست لديهم أدنى فكرة عما تتحدث عنه؟ طريقة بتلر هي سفسطة بحتة، أو بعبارة أخرى، إنها خدعة: "أفكاري ليست سيئة وغير مفهومة، فقط أنتم لستم متقدمين بما يكفي لفهمها".

وبعد قول هذا فإنه ليس من الصحيح الذهاب إلى حد التأكيد على أن نصوص ما بعد الحداثة غير مفهومة. الغرض من الخطاب المعقد هو جعل الأفكار القديمة جدا والغبية والرجعية **تبدو** أصيلة ومتطورة وحتى راديكالية. صحيح أن الأمر يتطلب القليل من الجهد للكشف عنها، لكن هناك بالتأكيد أجندة، وليس من الصعب فهمها بمجرد ترجمتها من "لغتهم الخاصة" إلى كلام البشر العاديين.

«لا يوجد شيء "خارج النص"»

قال جاك دريدا، الذي يعتبر أحد أكثر ما بعد الحداثيين نفوذا، مقولته الشهيرة: «لا يوجد شيء خارج النص».[8] وهو يقصد بهذا أن المعنى -وبالتالي المعرفة- لا يرتبط بالواقع الموضوعي، بل يرتبط بذاته فقط. الكلمات التي نستخدمها لا تتعلق بأي شكل من الأشكال بالأشياء التي نريد الإشارة إليها. وبدلا من ذلك فإن أي كلمة مفردة، وفقا لدريدا، يتم تعريفها فقط من خلال علاقاتها بالكلمات الأخرى. وبالتالي فإنه من أجل فهم أي شيء، علينا أولا أن نفهم كل الكلمات التي تعطي سياقا لكلماتنا، ثم كل الكلمات التي تعطي سياقا لتلك الكلمات، وهكذا دواليك. هذا مستحيل، بالطبع، وبالتالي فإن هذا الشيء العابر الذي يسمى "المعنى" سيتم، كما قيل لنا، "تأجيله" إلى الأبد ولن يتم إدراكه بالكامل.

من المؤكد أنه لا يمكن فهم معنى لغة دريدا بشكل كامل، لكن هذه مسألة أخرى. ما يهدف إليه دريدا هو تقويض الفكرة القائلة بأنه يمكننا فهم الواقع الموضوعي نفسه. أو بعبارة أخرى فإنه لا يوجد واقع "خارج النص". قد تكون لدينا كلمة لكلب أو قطة، لكن هذه المفاهيم حسب رأيه هي مجرد إبداعات مجردة وذاتية للعقل البشري وليس لها أي علاقة بأي قطة أو كلب حقيقيين، وبالتالي تفقد هذه الكلمات كل معنى لها.

على الرغم من هذه الملاحظات "العميقة"، فقد استمر الرجال والنساء منذ آلاف السنين في استخدام اللغة، غير آبهين بالحقائق الأعلى التي تخبرهم أن الكلب ليس كلبا حقا، وأن القطة ليست في الحقيقة قطة، وأن اللغة، في الواقع، غير قادرة على قول أي شيء مفهوم على الإطلاق.

فلسفة دريدا، وعلى عكس ما يدعيه هو، بعيدة عن أن تكون نظرة شاملة للأشياء حيث تُظهر فهما أحادي الجانب للغاية للمعرفة البشرية. إذا كانت مفاهيمنا لا تعكس أي حقيقة موضوعية، وإذا كان من الممكن إنشاء "المعنى" و"تفكيكه" من قبل البشر على هواهم، فكيف يمكن للناس التواصل عن طريق الكتابة أو بأي وسيلة أخرى؟ ولماذا يهتم دريدا بكتابة النصوص، في حين أنه لا يوجد أساس موضوعي أو مشترك للغة؟ بل وكيف يمكننا حتى أن نعرف بأننا جميعا نختبر نفس الحقيقة، إذا كنا جميعا عاجزين عن الوصول إليها؟ هذا إن كانت هناك حقيقة أصلا.

ومع ذلك، لا يبدو أن هذه التناقضات تزعج دريدا. فمثله مثل كل ما بعد الحداثيين، يرفع دريدا التناقض كوسام شرف. أشهر مفاهيمه، "التفكيك"، هو على وجه التحديد الافتراض القائل بأن "الحرية" تكمن في تحطيم تناسق الأفكار وتماسكها. وبهذه الطريقة يمكن لكل فرد بناء و"تفكيك" واقعه الخاص. وهذا، في الواقع، هو بالضبط ما تؤكده جوديث بتلر، النسوية الأكثر نفوذا في ما بعد الحداثة، إذ تقول:

«إن "الاعتراف" بعدم إمكانية إنكار "الجنس" أو "ماديته" يعني دائما التنازل عن نسخة ما من "الجنس"، وعن شكل ما "للمادية". **هل الخطاب الذي يحدث فيه هذا التنازل ومن خلاله -وبالفعل فإن هذا التنازل يحدث دائما- لا يشكل في حد ذاته تلك الظاهرة التي يعترف بها؟** [...] إن الإشارة بسذاجة أو مباشرة إلى مثل هذا الموضوع فوق الخطابي سيتطلب دائما التحديد المسبق لما فوق الخطاب».[9]

"الخطاب" هو "مكون للظاهرة ذاتها التي يعترف بها". التفكير ينتج الواقع. الواقع المادي، بما في ذلك الجنس البيولوجي، هو "خطاب"، ويمكن بطبيعة الحال تغييره عبر الخطاب. لكن إذا كان الجنس البيولوجي بالتأكيد مجرد نتاج للـ"خطاب"، فإن كل شيء آخر سيكون كذلك؛ وكذلك أنت وأنا. لكن ألا يمكنك بالتالي أن تبني أو "تفكك" واقعي أو أن أقوم أنا ببناء أو "تفكيك" واقعك؟... بتلر لا تجيب عن هذا السؤال.

هذه النظرية ليست حديثة ولا ما بعد حداثية، إنها قديمة جدا. إن ما نتعامل معه هنا هو المثالية الذاتية، وهي اتجاه يعود إلى الأيام الأولى للفلسفة نفسها. والمبدأ الرئيسي للمثالية الذاتية هو أنه لا توجد حقيقة موضوعية موجودة بشكل مستقل عن أفكار وأحاسيس البشر.

ليست طريقة دريدا في الحجاج سوى نسخة فجّة من الفكرة التي طرحها إيمانويل كانط في القرن الثامن عشر، حول أن الوعي البشري لا يمكنه أبدا معرفة الحقيقة المادية، أو ما أسماه "الشيء في ذاته". وفقا لكانط، فإن العقل مزود بسلسلة من أنماط التفكير "المسبقة" -مثل المكان والزمان والجوهر، وما إلى ذلك- والتي تسمح لنا بالتعرف على عالم المظهر. لكن عقولنا غير قادرة على معرفة الواقع المادي كما هو حقا، "في ذاته".

لكن دريدا يذهب أبعد من كانط ويسخر من المفاهيم في مجملها. كل المفاهيم العامة، حسب قوله، هي نتاج للعقل البشري ولا علاقة لها بالواقع الموضوعي. إن هذه الأفكار أقدم حتى من كانط. في بداية القرن الثامن عشر، طرح الأسقف جورج بيركلي نفس الحجج السخيفة، وإن بطريقة أكثر إقناعا، حيث قال: «إنه حقا رأي سائد بشكل غريب بين الناس، وهو أن للمنازل والجبال والأنهار، وبكلمة واحدة: كل الأشياء المحسوسة، وجود طبيعي أو حقيقي، منفصل عن كونها تدرك من خلال الفهم».[10]

لكن هناك مشكلة في هذه النظرية، وهي مشكلة لا يمكن حلها بسهولة. فالخلاصة المنطقية الحتمية لهذه الفكرة هي الانغماس في السوليبسيزم (مصطلح من الكلمة اللاتينية solo ipsus، أنا نفسي فقط). إنها الفكرة القائلة بأنه نظرا لأننا لا نستطيع إثبات وجود أي شيء أو أي شخص آخر باستثناء ذاتنا، فإنه يجب علينا أن نستسلم لأن نكون مجرد أسرى منفردين لعوالمنا الداخلية، وأن كل شيء آخر هو من نسج خيالنا. لكن إذا كان الأمر كذلك، فحينها سيصبح الله أيضا مجرد نسج لخيالنا.

وفقا لهذه الفكرة لا يمكن لأي شيء أن يكون موضوعيا، لأنه لا يمكن إثبات وجود أي شيء. كل شيء هو مجرد نتاج ("بناء") للتفكير. وهذا، بالطبع، ادعاء تدحضه آلاف السنين من التجارب والممارسة البشرية. وقد تم دحضه أيضا من خلال تاريخ العلم لما لا يقل عن ألفين وخمسمائة عام. لكن هذا لا يشغل بال ما بعد الحداثيين الذين ينكرون حدوث أي تقدم على الإطلاق.

كان الأسقف بيركلي رجعيا ومدافعا شرسا عن الكنيسة. كان هدفه المعلن هو خوض صراع ضد العلم والفكر العقلاني والإلحاد والمادية في عصر التنوير. ويتفق معه ما بعد الحداثيين حول كل تلك القضايا، باستثناء الإلحاد. كانت حجته الرئيسية تستهدف التجريبية، التي هي شكل غير متطور من المادية سادت في ذلك الوقت. أكد التجريبيون أن كل المعارف يتم الحصول عليها في نهاية المطاف من خلال التجربة الحسية. هذه فكرة صحيحة، لكنها أحادية الجانب. وقد دفع الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم حجتهم إلى حد العبث، حيث انتهى به الأمر إلى القول بأنه نظرا لأنه لا يمكننا الاعتماد إلا على التجربة الحسية، فلا يمكننا إثبات وجود **أي شيء** بخلاف تجربة الإحساس الخاصة بنا.

إذا قبلنا بفرضية المثالية الذاتية، فسيكون هناك طريق واحد فقط للخروج من هذا العبث، وهو الطريق الذي اقترحه الأسقف بيركلي، أي أن عقل الله هو الذي يدرك الأشياء، وأنه هو الذي يعطي أفكارنا الموضوعية ويعطي البشر نقطة مرجعية مشتركة.

لكـن هنـاك طريـق آخـر: طريـق الماديـة والعلـم. إلى جانب القـول بـأن كل المعرفة يتـم الحصول عليهـا مـن خـلال التجربـة الحسـية، يجـب أن نضيـف فكـرة أخـرى، وهـي أن الواقـع المـادي الموضوعـي موجـود بشـكل مسـتقل عـن أفكارنـا وخبراتنـا، وأن البـشر قـادرون عـلى التحقيـق في هـذا الواقـع وكشـف خصائصـه وقوانـين حركتـه الداخليـة. وهـذا بالضبـط مـا ترفضـه مـا بعـد الحداثـة.

هل الحقيقة ممكنة؟

مـن المعـروف عمومـا أن الفكـرة الصحيحـة هـي الفكـرة التـي تتوافـق مـع الواقـع. قـد يعتقـد الطفـل الصغـير أنـه مـن الممتـع اللعـب بالنـار، لكنـه سرعـان مـا سـيتوصل إلى أن هـذه ليسـت فكـرة صحيحـة. ومـن خـلال التجربـة والخطـأ المؤلمـين، ستتشـكل مـع مـرور الوقـت الفكـرة بـأن النـار إذا اقتربنـا منهـا بالطريقـة الصحيحـة يمكنهـا أن تكـون مفيـدة جـدا، بـل ويمكنهـا في بعـض الحـالات أن تكـون شـيئا ممتعـا. تتحـول النـار مـن كونهـا "شيء في ذاتـه" مجهـول، إلى "شيء لنـا". وهـذا هـو المسـار العـام الـذي يقطعـه البـشر مـن الجهـل إلى المعرفـة.

لكـن مـا بعـد الحداثيـين يرفضـون هـذا التصـور. إنهـم يرفضـون تمامـا الافـتراض القائـل بـأن الأفـكار يمكنهـا أن تكـون صحيحـة أو خاطئـة. إنهـم يسـخرون مـن العبـارات القاطعـة (وإن لم يكـن ذلـك دائمـا، كـما سـنرى) لأن ذلـك يعنـي أن بعـض العبـارات أكـثر صحـة مـن غيرهـا. وهكـذا يحشـون كتاباتهـم بعبـارات غامضـة وملتبسـة للغايـة، مليئـة بالـشروط والتفسـيرات الطويلـة المتناقضـة.

وفقـا لفوكـو، الـذي يعتـبر أبـرز منظـري مـا بعـد الحداثـة، لا يمكننـا التطلـع إلى الوصـول للحقيقـة الموضوعيـة. أي أننـا لا نسـتطيع أن نتطلـع إلى وجـود أفـكار لا يعتمـد محتواهـا عـلى البـشر. ويؤكـد أن مصداقيـة الأفـكار -أي بعبـارة أخـرى: المعرفـة- ليسـت، في آخـر المطـاف، نتاجـا لتجربتنـا للواقـع المـادي، بـل نتاجـا لمـا يسـميه "السـلطة". والسـلطة هنـا ليسـت السـلطة بالمعنـى الـذي نفهمـه عـادة، مثـل سـلطة الدولـة، أو سـلطة طبقـة عـلى أخـرى. إن "السـلطة" في معجـم فوكـو تعنـي في الأسـاس المعرفـة **بشـكل عـام**. وهكـذا فـإن "السـلطة" تنتـج المعرفـة والمعرفـة تنتـج "السـلطة". أو بعبـارة أخـرى: المعرفـة تنتـج المعرفـة. هـذا حشـو محـض لا يفـسر أي شيء. وهـو، في الأسـاس، نفـس المبـدأ الـذي طرحـه دريـدا، والقائـل بـأن الأفـكار والمفاهيـم العامـة لا تعكـس الواقـع الموضوعـي، بـل تعكـس فقـط أفـكارا ومفاهيـما أخـرى.

ثـم يذهـب فوكـو ليخبرنـا بـأن الحقيقـة ليسـت شـيئا يمكننـا التحقـق منـه مـن خـلال اختبـار أفكارنـا في العـالم الحقيقـي، بـل هـي "تُنتَج" بواسـطة "السـلطة". وأن "أنظمـة الحقيقـة"[11] مفروضـة عـلى المجتمـع بواسـطة "السـلطة". "السـلطة" هـي التـي تخبرنـا مـا هـو صحيـح ومـا هـو خطـأ. رغـم أنـه لا وجـود في الواقـع، وفقـا لفوكـو، لتصنيفـات مثـل الصحيـح والخطـأ. وبالتـالي فإنـه لا شيء صحيـح ولا شيء خاطـئ. ويخبرنـا أن إحـدى الطـرق التـي يمكننـا مـن خلالهـا اكتشـاف ذلـك هـي تنـاول عقـار إل إس دي (LSD):

«يمكننـا أن نـرى بسـهولة كيـف يقلـب عقـار إل إس دي علاقـات المـزاج السيء والغبـاء والفكـر: لا يـكاد يزيـل سـيادة المقـولات حتـى يمـزق أرضيـة اللامبـالاة ويفـكك الايمـاءات القاتمـة للغبـاء، وهـو يقـدم هـذه الكتلـة أحاديـة البـؤرة ليـس فقـط عـلى أنهـا متنوعـة ومتحركـة وغـير متناظـرة وغـير مركزيـة ولولبيـة وذات صـدى، بـل يتسـبب في جعلهـا ترتفـع، في كل لحظـة، عـلى شـكل حشـد مـن الأحـداث الوهميـة».[12]

إذا اسـتطعنا محاولـة ترجمـة هـذا الهـراء، فـإن مـا يخبرنـا بـه فوكـو هنـا هـو أن الهلوسـة التـي يسـببها عقـار إل إس دي تكشـف لنـا أن الواقـع ليـس كـما نفكـر فيـه عـادة. قـد أعتقـد يومـا مـا أن الأفيـال حيوانـات بريـة تعيـش في حدائـق الحيـوان والمناطـق الاسـتوائية، وفي اليـوم التـالي قـد تكـون كائنـات ورديـة صغـيرة تحلـق في دوائـر حـول رأسي. مـن يمكنـه أن يحـدد أيـا مـن هـذه الأفـكار صحيـح وأي منهـا خاطـئ؟

لا يمكننـا التحـدث عـن الحقيقـة عـلى الإطـلاق، لا الحقيقـة مـن وجهـة نظـري ولا مـن وجهـة نظـرك. هنـاك اسـتثناء واحـد بالطبـع، نـوع واحـد مـن الحقائـق الـذي هـو صحيـح تمامـا وأبـدا، وهـو تصريحـات السـيد فوكـو المشوشـة blanket، مثـل رفضـه لمفهـوم الحقيقـة. هـذا مثـال آخـر عـلى التناقـض الـذاتي لمـا بعـد الحداثـة. لا يـدرك فوكـو أنـه يحـاول تزويدنـا **بدليـل** عـلى "صحـة" مفهومـه. ألم يكـن هـذا بالضبـط هـو مـا كان مـن المفـترض أن يكـون مسـتحيلا؟

هـل يمكننـا حقـا أن ندعـي، كـما يفعـل فوكـو، أن الحقيقـة الموضوعيـة هـي مجـرد خيـال؟ دعونـا نـرى: يمكننـي أن أتصـور أننـي طائـر وأننـي أسـتطيع الطيـران، لكننـي إذا قفـزت مـن حافـة جبـل، فـإن هـذه الفكـرة سـتتحطم معـي. يمكننـي أن أتخيـل أننـي مليونـير، لكننـي إذا ذهبـت إلى أحـد البنـوك وطلبـت منـه سـحب مليـون جنيـه إسـترليني، فسـوف يسـألني المديـر بالتأكيـد عـن مقـدار عقـار إل إس دي الـذي اسـتهلكته. وإذا رغـب أي مـن منظـري مـا بعـد الحداثـة إثبـات خطأنـا، فإننـا ندعوهـم بـأدب لتجربـة إحـدى هاتـين التجربتـين. وسرعـان مـا سـتخبرنا الممارسـة مـن هـو عـلى حـق ومـن هـو عـلى خطـأ!

في أوروبـا، طـوال العصـور الوسـطى وحتـى القـرن الثامـن عـشر، كان هنـاك اعتقـاد شـائع بـأن الأرض قـد خلقهـا اللـه قبـل بضعـة آلاف مـن السـنين. لكـن العلـم بـدد هـذا الاعتقـاد كليـا. ومـا تـزال هـذه الفكـرة موجـودة اليـوم فقـط عـلى أسـاس الإيمـان. إن رفـض الحقيقـة الموضوعيـة يـؤدي في النهايـة إلى اختـزال كل المعرفـة البشريـة إلى مسـتوى الإيمـان والخرافـات، أي يعيدنـا إلى مسـتنقع الديـن.

وعـلى عكـس الإيمـان، فـإن العلـم يقـوم كليـا عـلى فكـرة أن العـالم الطبيعـي موجـود بشـكل مسـتقل عـن أفكارنـا، وأن أفكارنـا قـادرة عـلى عكـس الظواهـر الطبيعيـة. ولذلـك فـإن الحقيقـة موجـودة بشـكل موضوعـي، أي بشـكل مسـتقل عـن عقـول البـشر. إن إنـكار هـذا هـو مثـل إنـكار العلـم، وهـو بالضبـط، كـما سـنرى، مـا يفعلـه مـا بعـد الحداثيـين.

المعرفة الذاتية والموضوعية

فلسـفة مـا بعـد الحداثـة ترفـع الذاتيـة إلى مبـدأ مطلـق. ومـن هـذا يُسـتنتج أن التفكـير بشـكل عـام محـدود وجـزئي، وبالتـالي فإنـه غـير قـادر عـلى أن يصـل إلى الحقيقـة الموضوعيـة. إن العـالم، بالنسـبة للأكاديمـي ضيـق الأفـق، يتوقـف عنـد طـرف أنفـه أو عـلى الأقـل عنـد بـاب غرفـة النـدوة. لا ينتـج الأسـتاذ الجامعـي سـوى الكلـمات. وهـي مـا يشـكل مجمـوع عالمـه أو بيئتـه الطبيعيـة، البيئـة الوحيـدة التـي يعرفهـا. وهـذا مـا يفـسر هـوس مـا بعـد الحداثيـين بالكلـمات واللغـة، كـما يفـسر ضيـق نظرتهـم وفقـر تفكيرهـم.

لكـن التفكـير يتجـاوز "الـذات". إن النظريـات العلميـة والفلسـفية العظيمـة في التاريـخ ليسـت مجـرد نتـاج لعقـول فرديـة عظيمـة، إنهـا أسـمى تعبـير عـن تطـور فكـر البـشر في مجتمعاتهـم. وعندمـا نتحـدث عن الفكـر البـشري فإننـا لا نتحـدث عـن شـطحات العقـل الفـردي، بـل نتحـدث عـن الفكـر الإنسـاني بشـكل عـام، بشـكل جماعـي.

صحيـح أن كل إنسـان منفـرد لديـه بالطبـع نظـرة جزئيـة ومحـدودة. لكـن بالإجـمال يمكـن للإنسـانية التغلـب عـلى محدوديـة الفـرد مـن خـلال الاختبـار الجماعـي لموضوعيـة كل فرضيـة مـن خـلال عـدد لا يحـصى مـن الزوايـا وتطبيقهـا في الحيـاة الواقعيـة. إن الأفـكار داخـل رأس الفـرد لا تنتمـي إليـه وحـده، فـكل نظرياتنـا ولغتنـا هـي نتـاج للتطـور الاجتماعـي للبشريـة ككل، تنتقـل مـن جيـل إلى جيـل. كـما أن العلاقـة بـين الـذات والموضـوع ليسـت محـض مسـألة تأمـل مجـرد. يتفاعـل الجنـس البـشري مـع العـالم الحقيقـي بشـكل نشـيط وليـس بشـكل سـلبي.

يحـول البـشر العـالم مـن خـلال العمـل الجماعـي، وبالتـالي يغـيرون أنفسـهم. عمليـة الخلـق المسـتمرة هـذه هـي التـي تجـد أسـمى تعبـير لهـا في مسـيرة العلـم إلى الأمـام، والتـي يرغـب مـا بعـد الحداثيـين في إنكارهـا، ولكنهـا حقيقـة بديهيـة. إنهـا مسـيرة متواصلـة مـن الجهـل إلى المعرفـة. مـا لا نعرفـه اليـوم، مـن المؤكـد أننـا سـنعرفه غـدا. وبهـذا المعنـى فـإن الفكـر البـشري ليـس قـادرا فقـط عـلى معرفـة الحقيقـة الموضوعيـة، بـل هـو أيضـا مطلـق وغـير محـدود. لا توجـد معرفـة مسـتحيلة بالنسـبة لـه.

أوضـح ماركـس في أطروحاتـه حـول فيوربـاخ أن: «السـؤال حـول مـا إذا كانـت للتفكـير البـشري حقيقـة موضوعيـة ليـس سـؤالا نظريـا، بـل هـو سـؤال عمـلي. يجـب عـلى الانسـان إثبـات الحقيقـة، أي واقعيـة وقـوة تفكـيره ووجـود هـذا الجانـب مـن تفكـيره، في الممارسـة. إن الخـلاف حـول واقعيـة أو عـدم واقعيـة

التفكير المنعزل عن الممارسة هو سؤال سكولاستيكي بحت».[13]

إن طرح السؤال عما إذا كانت الحقيقة موضوعية أم لا، بشكل منفصل عن النشاط البشري الحقيقي، كما يفعل ما بعد الحداثيين، يرقى إلى مجرد تكهنات جوفاء. إن الفكر تعبير عن الممارسة وفي النهاية فإن اختبار الأفكار يتم في الممارسة. يعمل تطوير الأفكار على تحسين ممارستنا. وبالمثل فإنه في سياق هذا النشاط، يتم تحديد العناصر الحقيقية الموضوعية لجميع الأفكار وفصلها عن جوانبها غير الصحيحة أو المبالغ فيها.

الحقيقة النسبية والمطلقة

لكن هل حقيقة أن الأفكار يمكن إثبات صحتها موضوعيا تعني أن الأفكار تلم بكل الحقيقة منذ اللحظة التي يتم التفكير فيها مرة وإلى الأبد؟ كلا بالطبع. من الخاطئ، من وجهة النظر المادية، الحديث عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة، بمعنى المعرفة النهائية لكامل كوننا. البشر قادرون على اكتشاف قوانين الطبيعة على جميع المستويات. ويعتبر التقدم المستمر الذي تحققه العلوم والتكنولوجيا الحديثة دليلا على ذلك. لكن البشرية لن تصل أبدا إلى النقطة التي تكون فيها قد اكتشفت كل ما يمكن اكتشافه. فمع كل مشكلة يحلها العلم وكل مستوى من مستويات تحكم الانسان في الطبيعة، تنشأ طرق جديدة ومشاكل جديدة.

يوضح لنا تاريخ العلم هذه السيرورة في سلسلة لا تنتهي من النظريات، مع صعود نظريات وتراجع أخرى في مواجهة النظريات الأكثر تقدما. لكن انطلاقا من هذه الملاحظة الصحيحة كليا، تصل فلسفة ما بعد الحداثة، مرة أخرى، إلى استنتاج مبالغ فيه وأحادي الجانب، حيث تستنتج أنه نظرا لكون جميع النظريات قابلة لكي يتم تجاوزها في مرحلة معينة، فإنه لا وجود للحقيقة؛ وأن كل الحقائق نسبية واعتباطية.

في كتابيه "الجنون والحضارة" و"تاريخ الجنون" -اللذان من المفترض أنهما دراستان تاريخيتان في الطب النفسي- يقدم لنا فوكو مجموعة من الأفكار والأساليب التي كانت تستخدم في الطب النفسي في الماضي، لكن اتضح خطأها بعد ذلك، بل سيتم اعتبارها رجعية، في الواقع، إذا طبقها الأطباء النفسيون اليوم. وعلى هذا الأساس يحاول تقويض الفكرة القائلة بأن العلم يقوم على الحقيقة الموضوعية بشكل عام.

هذا اتجاه عام في كل "تواريخ" فوكو. يبدو الأمر كما لو أن فوكو كان في البداية يتوقع أن يكون العلم بمثابة الكأس المقدسة للحقيقة الأبدية المطلقة، لكنه بعد أن أصيب بخيبة أمل مما وجده، خلص إلى أنه من الضروري تجاهل العلم ومفهوم الحقيقة بشكل كامل. إنه يوقف دمية من القش ثم يطرحها أرضا دون عناء. لكن العلم لا يتعلق أبدا بامتلاك الحقيقة المطلقة. إنه يضع لنفسه هدفا أكثر تواضعا بكثير وهو: اكتشاف الحقيقة خطوة بخطوة، من خلال التطبيق الصبور للمنهجية العلمية الحقيقيةّ، أي: الملاحظة والتجربة.

ينظر ما بعد الحداثيين إلى علم العصور السابقة بازدراء. إنه من السهل، بالطبع، انتقاد مرحلة أقل تقدما انطلاقا من المرحلة التي تعيش فيها. لكن ذلك الموقف يكشف عن الجهل والجبن، مثل شخص بالغ يسخر من طفل لأنه لا يتحدث بنفس الطريقة الدقيقة وبنفس الثقة التي يتحدث بها هو. لكن أفكار المراحل التاريخية المختلفة ليست عرضية. إنها تعكس قدرات المجتمع البشري في كل مرحلة معينة، وعلى هذا النحو فإنها مطلقة بالنسبة لتلك المرحلة، أي أنها أسمى الحقائق التي يمكن أن يصل إليها المجتمع في ذلك الوقت بالذات.

إن الحقائق الخاصة التي يكتشفها مجتمع معين لا يتم الحصول عليها بشكل تعسفي. لم يكن من الممكن لنيوتن أن يطور ميكانيكا الكم. لقد شكلت ميكانيكا نيوتن حلقة ضرورية أدت لاحقا إلى اكتشافات ميكانيكا الكم. إن الفكر -والفكر العلمي كأسمى تعبير عنه- يعكس في آخر المطاف مستوى تطور المجتمع في عصره. لكنه يعمل بدوره على تطوير المجتمع ككل، بحيث يؤدي هذا التطور بحد ذاته، في وقت معين، إلى ظهور أشكال فكرية جديدة أكثر تعقيدا وأكثر تقدما. هذه هي السيرورة التي لا تنتهي من الجهل إلى المعرفة؛ من أشكال الحقيقة الأدنى إلى الأعلى.

هذا لا يعني التخلي عن الأفكار القديمة باعتبارها محض هراء، بل على العكس من ذلك، تصبح نواتها العقلانية عنصرا ضروريا لمزيد من تقدم العلم. فكل مستوى من مستويات الطبيعة يتعلم البشر التحكم فيها، يفتح الطريق إلى مستوى أعمق. لقد كان تطور ميكانيكا نيوتن مكسبا عظيما للبشرية. لقد كانت واحدة من أولى الإنجازات العظيمة التي بدأها صعود الرأسمالية ولعبت دورا مهما في تطوير العلم والمجتمع ككل. لكن العلم لم ينته عند ذلك الحد؛ فبعد الميكانيكا الكلاسيكية جاءت ميكانيكا الكم. إلا أن ميكانيكا الكم لم تُبطل الميكانيكا الكلاسيكية، بل إنها، على العكس من ذلك، قامت عليها، تماما مثلما ستشكل ميكانيكا الكم أساسا لتقدم أكبر للعلم في المستقبل، وستجهز الأرضية لتجاوز ميكانيكا الكم نفسها. ستبقى ميكانيكا الكم صالحة لمستوى معين، لكن بعد ذلك ستظهر نظريات أكثر تقدما.

إن تاريخ الفكر العلمي، على عكس ما يتخيله ما بعد الحداثيين، ليس رحلة مطاردة فاشلة وراء حقيقة مطلقة مراوغة، حيث يقفز من نظرية عرضية إلى أخرى. إنه سيرورة لا تنتهي أبدا نحو فهم أعمق وأعمق للطبيعة والقوانين التي تحكمها. ومن خلال عدد لا يحصى من التجارب والأخطاء، يتم اختبار كل نظرية في نهاية المطاف، ويتم غربلة



عناصرها العرضية والذاتية وغير الصحيحة، وتحديد حدودها وتكديس نواتها الحقيقية في مخزون المعرفة البشرية، مما يمهد الطريق لأفكار جديدة وأكثر تقدما لتحل محلها .

النظرية ليست معزولة بشكل كامل عن بعضها البعض ومناقضة بشكل كامل لبعضها البعض. بل إنها جميعا تشكل مراحل مختلفة من التطور الديالكتيكي للمعرفة الإنسانية ككل، والذي هو تطور لا نهائي، من أشكال الحقيقة الأدنى إلى الأعلى.

"السرديات الكبرى"

بما أن ما بعد الحداثيين يرفضون فكرة الحقيقة، فإنهم يجعلون من أولئك الذين يعتقدون بوجود الحقيقة عدوهم الأول. دعونا نعود للحظة إلى كتاب "حالة ما بعد الحداثة"، حيث يحاول جان فرانسوا ليوتار تحديد معنى "ما بعد الحداثة":

«سأستخدم مصطلح "حديث" للإشارة إلى أي علم يشرعن نفسه بالإحالة إلى خطاب فوقي من هذا النوع، مما يشكل مناشدة صريحة لبعض السرد الكبير، مثل ديالكتيك الروح، وعلم تأويلات المعنى، وتحرر الذات العقلانية أو العاملة، أو خلق الثروة».

«ولكي أبسط إلى أقصى الحدود، أعرّف ما بعد الحداثة بأنها نزعة الشك في السرديات الكبرى. نزعة الشك هذه هي بالتأكيد نتاج لتقدم العلوم؛ لكن هذا التقدم بدوره يفترضها. تقادم جهاز السرديات الكبرى للشرعنة يتوافق، على وجه الخصوص، مع أزمة الفلسفة الميتافيزيقية ووظيفة الجامعة، والتي تعتمد عليها جزئيا. وظيفة السرد تفقد دلالاتها وبطلها العظيم ورحلاتها العظيمة وهدفها العظيم».[14]

لدينا هنا مثال لا يقدر بثمن على طريقة ما بعد الحداثة في إطلاق المصطلحات غير المفهومة. المرجو أن تضع في اعتبارك أن ليوتار قد قام، لما فيه مصلحتنا، بـ "التبسيط إلى أقصى الحدود". وهذا فقط لأنه بخلاف ذلك كنا سنواجه خطر فهم ما يحاول قوله فعليا، وهو أن ما بعد الحداثة ترفض جميع المدارس الفكرية التي تحاول تطوير رؤية موحدة متماسكة للعالم.

إن رفض النظرة المتماسكة للعالم ينبع منطقيا من رفض وجود حقيقة موضوعية مستقلة عن العقل. إذا أنكرت وجود واقع موضوعي، وبالتالي حقيقة موضوعية، بشكل مستقل عن أذهاننا، فلن تكون هناك أبدا أي نظريات عامة. وسيكون في مقدور كل فرد أن يطور نظرياته الخاصة التي تنطبق على واقعه الخاص. وفي مثل هذه الحالة، ستتحول "السرديات الكبرى" بالفعل إلى شكليات ومخططات لفرض قوانين عالمي على عالمك أو العكس. لكن أسوء مرتكبي هذه الجريمة بالذات هم ما بعد الحداثيين أنفسهم.

إن رفض السرديات الكبرى هو بحد ذاته أكثر سردية كبرى فظاظة وتفاهة. وهي تعرض علينا بدون أي دليل أو حجة حقيقية! إن المطلوب منا بشكل أساسي هو قبول السرديات الكبرى لما بعد الحداثة بإيمان أعمى. ما بعد الحداثة هي السردية الكبرى الوحيدة الحقيقية. كل السرديات الأخرى خاطئة، لأن ما بعد الحداثة تقول ذلك. هذا هو بالضبط ذلك النوع من التنمر الفكري و"الاضطهاد" الذي يحتج عليه ما بعد الحداثيين بشدة. وهو أساس هجماتهم الهستيرية على كل من يثير اعتراضا جديا على ما يقولونه. لا يختلف هذا عن أي عقيدة دينية أخرى.

يتم انتقاد الماركسيين من قبل ما بعد الحداثيين لكونهم عقائديين ومعارضين لدمج أفكار أخرى في النظرية الماركسية. قد تبدو هذه فكرة جيدة بالنسبة لبعض الناس، إذ لماذا تتمسك بفلسفة واحدة بينما يمكنك الاختيار والانتقاء من بين أفضل الأفكار الموجودة حولك، بغض النظر عن الفيلسوف أو المدرسة الفكرية التي طورتها؟ لكن هذا هو بيت القصيد، حيث أن ما بعد الحداثيين **لا يقولون** إنه يجب علينا اختيار أفضل الأفكار. إذ لا توجد أفكار جيدة أو سيئة، ولا صحيحة أو خاطئة. إنها ليست مسألة امتلاك أفكار صحيحة، بل هي مسألة الإصرار على أن أفكارنا يجب أن تكون غير متماسكة. الآن ولأول مرة في تاريخ الفلسفة، ارتقى "الحساء الانتقائي الهزيل"، كما أسماه إنجلز، إلى مرتبة المبدأ الموجه لمدرسة فكرية.

يلقي ما بعد الحداثيين اللوم على الماركسيين لعدم "تفتح عقلهم" تجاه المدارس الفكرية الأخرى. لكن العكس هو الصحيح في الواقع! فهؤلاء السيدات والسادة مهووسون بكونهم قد أتوا بالجديد والأصيل (على الرغم من أن هذا بعيد عن الواقع). إنهم يتصرفون كما لو أن التاريخ يبدأ وينتهي بهم. بينما الماركسية، في المقابل، لا تدعي أنها تبرز كشيء لا علاقة له تماما بالفلسفات السابقة. نحن لا ندعي أن أفكار الاشتراكية العلمية قد نشأت بشكل بحت من عبقرية إبداعية خاصة لكارل ماركس وفريدريك إنجلز.

الماركسية هي خلاصة النواة العقلانية **لجميع** الفلسفات السابقة، والتي بنت كل منها على أساس التقدم الذي حققته العصور السابقة لها. إنها تشكل بناءً موحدا ومنسجما. إنها تحتوي في ذاتها على جميع العناصر الأكثر قيمة وصحة لمدارس الفكر السابقة -الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الألمانية الكلاسيكية والمادية الفرنسية في عصر التنوير والاقتصاد السياسي الإنجليزي والتوقعات الرائعة للاشتراكيين الطوباويين الأوائل. كل تلك المدارس تحتوي، بطريقة أو بأخرى، على حقائق ورؤى قيمة، تعكس جوانب ونواحي مختلفة من **نفس الواقع الموضوعي**.

على مدار تاريخ تطور العلم والفكر على مدى آلاف السنين، كانت الصورة التي ظهرت، والتي أصبحت أكثر وضوحا كل يوم، هي صورة عالم مادي واحد مترابط يعمل وفقا لقوانينه المتأصلة للحركة والتطور. هذا هو أساس النظرة الموحدة العامة للماركسية وأي نظرية علمية حقيقية. إن البحث المنهجي في هذه القوانين على مستويات مختلفة من الطبيعة هو الهدف الأساسي لأي علم. لكن كل هذا يعد خطيئة بالنسبة لما بعد الحداثيين الذين يعارضون جميع أشكال التفكير المنهجي.

"مناهضة العلم"

إن ما بعد الحداثيين بمعارضتهم لما يسمونه بالسرديات الكبرى، إنما يعارضون بالتحديد هذا البحث المنهجي والعلم بشكل عام. استمعوا إلى كيف يستنكر فوكو باستهزاء ما يسميه «استبداد الخطابات المعولمة بتسلسلها الهرمي وكل امتيازاتها كطليعة نظرية»[15]، وكيف دعا إلى «... النضال ضد الطبيعة القسرية النظرية الأحادية والشكلية والخطاب العلمي»[16]. في الواقع إن فوكو يعرّف طريقته الرئيسية، الجينيالوجيا، على أنها ليست أكثر ولا أقل من "مناهضة العلم":

«ما تقوم به [الجينيالوجيا] حقًا هو قبول الادعاءات بالاهتمام بالمعارف المحلية والمتقطعة وغير المؤهلة وغير المشروعة، ضد ادعاءات مجموعة نظرية موحدة من شأنها أن ترشحها وتصنفها وترتبها باسم معرفة حقيقية ما وفكرة تعسفية ما عن ماهية العلم ومواضيعه. ولذلك، فإن الجينيالوجيا ليست عودة إيجابية إلى شكل أكثر حرصا أو دقة من العلم. **إنها على وجه التحديد مناهضة للعلوم**».[17]

ما الذي يعنيه هذا إن لم يكن إعلانا للحرب على العلم والفكر العقلاني ودفاعا عن الظلامية؟ والأسوء من ذلك هو أنه يتم الترويج لهذه الأفكار الرجعية على أنها أكثر أشكال التفكير راديكالية. فلوسي إيريغاراي على سبيل المثال، معروفة برفضها لنظرية النسبية لأينشتاين، على أساس أنها "متحيزة ضد المرأة"، ربما لأن ألبرت أينشتاين كان لسوء الحظ رجلا. مقالها الذي أصدرته عام 1987 عنوانه: Le Sujet de la Science Est-il Sexué? (هل موضوع العلم متحيز؟). ولدى تأملها في هذا السؤال كتبت ما يلي:

«ربما هو كذلك. دعونا نفترض أنه كذلك بقدر ما يميز سرعة الضوء على السرعات الأخرى الضرورية بشكل حيوي بالنسبة لنا. ما يبدو لي أنه يشير إلى الطبيعة الجنسية المحتملة للمعادلة ليس استخدامها مباشرة من قبل الأسلحة النووية، بل هو كونها أعطت الامتياز للأسرع...».[18]

وفي مكان آخر تواصل إيريغاراي خطبتها اللاذعة ضد المسكين أينشتاين، إذ تقول:

«لكن ما الذي تقدمه نظرية النسبية الجبارة لنا باستثناء إنشاء محطات للطاقة النووية والتشكيك في قصورنا الجسدي، هذا الشرط الضروري للحياة؟».[19]

إن السرعة، وفقًا للمنطق المعقد لإيريغاراي،

هـي سـمة ذكورية في الغالـب، وبالتـالي فـإن "تثبيـت" أينشـتاين بالسرعـة في معادلتـه هـو "تحيـز ضـد المـرأة". لكـن السـبب الدقيـق الـذي يجعـل الذكـور أكـثر هوسـا بالسرعـة والإنـاث لسـن كذلـك، فيبقـى لغـزا لا يمكـن تفسـيره إلا مـن قبـل إيريغـاراي. وعـلى حـد علمنـا فـإن الرجـل سـيجد صعوبـة في بلـوغ سرعـة الضـوء مثلـه في ذلـك مثـل المـرأة.

هنـا تنكشـف بـكل جـلاء الطبيعـة اللاعقلانيـة المناهضـة للعلـم لمـا بعـد الحداثـة. يتـم التشـهير بنظريـة النسـبية، التـي تُعـد أحـد أهـم ركائـز العلـم الحديـث، باعتبارهـا "متحيـزة جنسـيا"، لأن صاحبهـا، ألـبرت أينشـتاين، كان رجـلا.

خلـف الرفـض الـذي يبـدو بريئـا لمجـرد "سرديـات كـبرى" و"خطابـات معولمـة"، الملفـوف بخطـاب يبـدو راديكاليـا، أنشـأت مـا بعـد الحداثـة محكمـة تفتيـش حقيقيـة معاديـة للعلـم وللثقافـة. هنـا يتـم الترويـج "للمعـارف المحليـة والمتقطعـة وغـير المؤهلـة وغـير الشرعيـة" -التـي تعنـي الأفـكار الصوفيـة الباليـة التـي تقبـع في مزبلـة تاريـخ الفلسـفة- في حـين تتـم إدانـة أعظـم النظريـات والعقـول التـي عرفتهـا البشريـة بـكل وقاحـة. إذا تـم تطبيـق تلـك الأفـكار في الحيـاة الواقعيـة، سـوف يعنـي ذلـك التراجـع الكامـل لـكل الحضـارة.

مناهضة الماركسية

في حـين تمثـل مـا بعـد الحداثـة أعـلى مسـتويات تطـور للّاعقلانيـة، فـإن الماركسـية تمثـل أعـلى شـكل مـن أشـكال الفكـر العلمـي. ولأنهـا بالتحديـد هـي الفلسـفة الأكـثر اتسـاقا وعلميـة، فإنهـا تثـير أكـثر غضـب مـا بعـد الحداثيـين. مـن المثـير للاهتـمام أن نلاحـظ أن اعـتراض فوكـو الأسـاسي عـلى الماركسـية هـو أنهـا علميـة. وإليكـم مـا كتبـه: «**إذا كان لدينـا مـن اعـتراض عـلى الماركسـية، فإنـه يكمـن في حقيقـة أنهـا يمكـن أن تكـون علـما بشـكل فعـلي**».[20]

وفي مكان آخر من نفس النص يقول:

«كـما أنـه لا يهـم كثـيرا مـن حيـث الأسـاس أن يتجسـد إضفـاء الطابـع المؤسسـاتي للخطـاب العلمـي في جامعـة، أو بشـكل أعـم، في جهـاز تعليمـي، أو في مؤسسـة نظريـة تجاريـة مثـل التحليـل النفسـي أو في إطـار مرجعـي يقدمـه نظـام سـياسي مثـل الماركسـية؛ **لأن الجينيالوجيـا يجـب عليهـا أن تخـوض صراعهـا بالتحديـد ضـد تأثـير سـلطة الخطـاب الـذي يعتـبر علميـا**».[21]

نـرى هنـا الطبيعـة الحقيقيـة لمـا بعـد الحداثـة -باعتبارهـا إيديولوجيـة مناهضـة للعلـم والثـورة، تعـادي الماركسـية بشـكل أسـاسي. نسـمع أحيانـا أنـه علينـا الجمـع بـين أفـكار مـا بعـد الحداثـة وبـين الماركسـية. لكنهـما متعارضتـان بشـكل جـذري. يعـترف فوكـو بذلـك بنفـس القـدر عندمـا يكتـب: «ليـس الأمـر أن هـذه النظريـات العامـة لم توفـر أو تسـتمر في توفـير أدوات مفيـدة للبحـث المحـلي بطريقـة متسـقة إلى حـد مـا: وتعتـبر الماركسـية والتحليـل النفسـي دليـلان عـلى ذلـك. **لكنني أعتقـد أن هـذه الأدوات قـد تـم توفيرهـا فقـط بـشرط أن تكـون الوحـدة النظريـة لهـذه الخطابـات بمعنـى مـا معلقـة، أو عـلى الأقـل مقيـدة أو مقسـمة أو مطروحـة أو كاريكاتوريـة** أو ممسرحـة، أو مـا تشـاء. وفي كل حالـة أثبتـت محاولـة التفكـير في المجمـوع أنهـا في الواقـع عائـق أمـام البحـث».[22]

لـن تصـير الماركسـية ومـا بعـد الحداثـة متوافقتـان إلا إذا تـم تدمـير "الوحـدة النظريـة" للماركسـية؛ وعندمـا تتوقـف الماركسـية عـن كونهـا علـما، وشرط أن تتوقـف الماركسـية عـن كونهـا حقيقيـة، وشرط أن تتوقـف عـن كونهـا ماديـة... أو بعبـارة أخـرى: شرط أن تتوقـف الماركسـية عـن كونهـا ماركسـية.

تقـف الماركسـية في تناقـض تناحـري مـع مـا بعـد الحداثـة. نحـن ماديـون ونقـف بحـزم عـلى أسـاس الحقيقـة والعلـم. إننـا نعتقـد أنـه لا يوجـد سـوى عـالم مـادي واحـد مترابـط، كان موجـودا دائمـا، وهـو ليـس مـن صنـع إلـه ولا مـن صنـع "سـلطة" السـيد فوكـو. الحيـاة نتـاج لهـذا العـالم المـادي والبـشر هـم أكـثر أشـكال الحيـاة تطـورا. ومـن خـلال نشـاطنا نحـن قـادرون عـلى اكتشـاف قوانـين الطبيعـة وتسـخيرها لمصلحتنـا، لكننـا بدورنـا نخضـع لهـذه القوانـين، وبالتـالي فإنـه مـن خـلال تغيـير لعالمنـا نغـير أنفسـنا أيضـا.

تؤكـد النظريـة الماديـة المتسـقة للمعرفـة أن المعرفـة مشـتقة في النهايـة مـن تجربـة الحـواس. حواسـنا جسـور لهـذا العـالم الخارجـي وليسـت حواجـز أمـام معرفتـه. وإلا فـما الـذي يجعـل حواسـنا تغـذي عقولنـا **بهـذه** المعلومـة وليـس **تلـك**؟ نحـن لا نغـير العـالم بتغيـير اللغـة أو بتغيـير طـرق تفكيرنـا. لا يمكـن العثـور عـلى الحقيقـة في "النـص" أو في "الخطـاب"، بـل في العـالم الواقعـي المـادي. يمكننـا تغيـير العـالم بطـرق معينـة، وتخبرنـا حواسـنا مـا إذا كنـا قـد نجحنـا في ذلـك. مـن خـلال تفاعلنـا مـع العـالم نكتشـف أفكارنـا ونختبرهـا ونتقنهـا ونعطيهـا في النهايـة صلاحيـة موضوعيـة.

هـذه هـي المبـادئ الأساسـية للعلـم. إن الانفصـال عنهـا يعنـي توجيـه المسـار نحـو الديـن والتصـوف. إن مـا بعـد الحداثيـين لم يبتعـدوا عـن العلـم فحسـب، بـل إنهـم شـنوا صراعـا ضـد جوهـر العلـم نفسـه. وحقيقـة أن هـذه الأفـكار الرجعيـة يتـم نشرهـا مثـل أفـكار مقدسـة في الجامعـات والمـدارس وعـبر وسـائل الإعـلام في جميـع أنحـاء العـالم، تفضـح تعفـن للرأسـمالية اليـوم. إنهـا نظـام لم يعـد وجـوده متوافقـا مـع مصالـح الغالبيـة العظمـى مـن الجنـس البـشري.

إن رفـض فكـرة الواقـع الموضوعـي والحقيقـة الموضوعيـة لا يـؤدي في النهايـة إلا إلى شيء واحـد وهـو تبريـر الوضـع الراهـن والدفـاع عنـه. لأنـه إذا كان التقـدم مسـتحيلا، فـلا جـدوى مـن السـعي مـن أجـل بنـاء مجتمـع أفضـل. وإذا لم تكـن هنـاك حقيقـة موضوعيـة، فإنـه لا يمكننـا أن نقـول إن الاسـتغلال والفقـر والقمـع والحـرب أمـور "سـيئة" -إنهـا كلهـا مجـرد مسـألة منظـور. ينتهـي الأمـر بدعـاة مـا بعـد الحداثـة مجـرد مدافعـين عـن الرأسـمالية. لا يمكـن للفلسـفة الثوريـة حقـا إلا أن تكـون فلسـفة علميـة وماديـة شـاملة، فلسـفة تنظـر إلى الواقـع بشـكل مبـاشر. وحـده الفهـم الأكـثر وضوحـا والأكـثر دقـة لقوانـين الطبيعـة والمجتمـع مـا يمكـن مـن تبيـين مخـرج مـن الطريـق المسـدود للرأسـمالية والمجتمـع الطبقـي. وعـلى حـد تعبـير كارل ماركـس، الـذي أصـدر الحكـم النهـائي عـلى كل الفلسـفة البرجوازيـة: «**لم يعمـل الفلاسـفة سـوى عـلى تفسـير العـالم بطـرق مختلفـة، لكـن المهمـة هـي تغيـيره**».

دانيال مورلي وحميد علي زاده

هوامش:

1: Jean-François Lyotard, "Notes on the Return and Kapital," Semiotext(e), Vol 3, No. 1, (1978), pg 53.

2: Jean Baudrillard, Cool Memories 19801985-, (London: Verso, 1990), pg 67

3: Gilles Deleuze, & Félix Guattari, Anti-Odeipus: Capitalism and Schizophrenia, (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1983), pg 4, (خط التشديد من عندنا).

4: Michel Foucault, "Theatrum Philosophicum," in Aesthetics, Method and Epistemology, (New York: The New Press, 1998), pg 367.

5: Jean-François Lyotard, The Postmodern Condition: A Report on Knowledge, (Manchester: Manchester University Press, 1991), pg 24

6: Michel Foucault, "Prison Talk: an interview," Radical Philosophy, Vol 16, (1977), pg 14.

7: Judith Butler, Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity, (New York & London: Routledge, 1999), pg 18.

8: Jacques Derrida, Limited Inc, (Evanston, IL: Northwestern University Press, 1988), pg 136.

9: Judith Butler, Bodies That Matter: On the Discursive Limits of Sex, (New York & London: Routledge, 1993), pg 10.11. (خط التشديد من عندنا).

10: George Berkeley, A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge, (2002), pg 13

11: Michel Foucault, Power/Knowledge, pg 131.

12: Foucault, "Theatrum Philosophicum," pg 363.

13: Karl Marx, "Theses on Feuerbach," in The Revolutionary Philosophy of Marxism, (New York & London: Wellred Books, 2018), pg 51.

14: Jean-François Lyotard, The Postmodern Condition, pg 24.

15: Michel Foucault, Power/Knowledge: Selected Interviews & Other Writings 19721977-, (New York: Pantheon Books, 1980), pg 83.

16: Ibid., pg 85.

17: Ibid., 83. (التشديد من عندنا –المؤلفان-).

18: Luce Irigaray & Carol Mastrangelo Bové, "Le Sujet de la Science Est-Il Sexué?/Is the Subject of Science Sexed?," Hypatia, Vol. 2, No. 3, Feminism & Science 1, (1987).

19: Ibid.

20: Michel Foucault, Power/Knowledge, pg 84. (التشديد من عندنا –المؤلفان-).

21: Ibid.

22: Ibid., pg 81.

حول ضرورة الحزب الثوري



ما هو الحزب الثوري؟

الحزب ليس مجرد شكل تنظيمي أو اسم أو لافتة أو مجموعة أفراد أو جهاز. الحزب الثوري، بالنسبة للماركسي، هو في المقام الأول برنامج وأساليب عمل وأفكار وتقاليد، وفقط في المرتبة الثانية، تنظيم وجهاز (على الرغم من أهميتهما بلا شك) من أجل نقل هذه الأفكار إلى أوسع فئات الطبقة العاملة. يجب على الحزب الماركسي، منذ البداية، أن يؤسس نفسه على النظرية والبرنامج، اللذان هما تلخيص للتجربة التاريخية العامة للبروليتاريا. وبدون ذلك، سيكون لا شيء. يبدأ بناء الحزب الثوري دائما بالعمل البطيء والمضني المتمثل في تجميع وتكوين الكوادر التي تشكل العمود الفقري للحزب طوال حياته.

هذا هو النصف الأول من المسألة، لكنه النصف الأول فقط. والنصف الثاني أكثر تعقيدا، وهو: كيف نصل بأفكارنا وبرنامجنا إلى جماهير العمال؟ وهذا ليس سؤالا بسيطا على الإطلاق.

لمزيد من المعلومات حول مهمة وطرق الوصول إلى الفئات العريضة من الجماهير ، انظر مقالة تيد غرانت -بالإنجليزية- "حول المنظمات الجماهيرية، رسالة إلى الماركسيين الروس".

لماذا يجب أن يكون هناك حزب ثوري؟

إن مهمة التيار الماركسي هي أن يكون بمثابة ذاكرة للطبقة العاملة، ويعمم الخبرة الواسعة للحركة العمالية. وإلا فإنه لا يوجد أي مغزى آخر لوجودنا باعتبارنا تيارا منفصلا داخل الحركة العمالية. إذا أردنا أن نتعلم أي شيء من التاريخ -وبالتأكيد فإن الهدف الوحيد من دراسته هي محاولة تعلم دروسه، سواء دروس النجاحات أو الهزائم- فهو أنه لكي تنجح الطبقة العاملة في تغيير المجتمع، لا بد لها من بناء مثل هذا الحزب بعمل شاق وتكوينه وتدريبه في النظرية والاستراتيجية وخبرة الحركة العمالية، وذلك بشكل مسبقا وعلى مدى سنوات. إن الفرص الثورية لا تدوم إلى الأبد. فإذا لم ينجح العمال في تغيير المجتمع، فإن الطبقة السائدة ستسحقهم حتما دفاعا عن نظامها. وهذا مع الأسف ما يوضحه لنا تاريخ العديد من المحاولات التي قامت بها الطبقة العاملة للاستيلاء على السلطة -في تشيلي سنوات 1970-1973 على سبيل المثال. لا يمكن أن نتوقع أن ينبثق الحزب الثوري ببساطة من الفراغ، بل يجب أن يتم بناؤه بوعي، وبناؤه أمميا من نضالات الحركة العمالية وداخل المنظمات والأحزاب والنقابات الموجودة بالفعل.

إن وجود الحزب والقيادة الثوريين لا يقل أهمية بالنسبة لنتيجة الصراع الطبقي عن أهمية جودة الجيش وقيادته في الحروب بين الأمم. لا يمكن أن يتم ارتجال الحزب الثوري في خضم اللحظة الثورية، مثلما لا يمكن ارتجال هيئة أركان الجيش عند اندلاع الحرب. يجب أن يتم إعداد الحزب بشكل منهجي على مدار سنوات وعقود. وقد تم تأكيد هذا الدرس من خلال كل التجربة التاريخية، وخاصة تاريخ القرن العشرين. لقد أكدت روزا لوكسمبورغ، تلك الثورية العظيمة وشهيدة الطبقة العاملة، دائما على المبادرة الثورية للجماهير باعتبارها القوة المحركة للثورة. وقد كانت محقة تماما في هذا. ففي سياق الثورة تتعلم الجماهير بسرعة. لكن الوضع الثوري، بطبيعته، لا يمكن أن يستمر طويلا. لا يمكن إبقاء المجتمع في حالة غليان دائمة، كما لا يمكن إبقاء الطبقة العاملة في حالة تعبئة نضالية متواصلة. لذا فإما أن يظهر مخرج في الوقت المناسب، أو ستضيع اللحظة الثورية. لا يوجد خلال الوضع الثوري وقت كاف للتجريب أو لأن يتعلم العمال عن طريق التجربة والخطأ. وخلال حالة الحياة والموت، يتم دفع ثمن الأخطاء غاليا جدا! لذلك فإنه من الضروري دمج الحركة "العفوية" للجماهير مع التنظيم والبرنامج والمنظورات والاستراتيجية والتكتيك، أي باختصار: مع حزب ثوري بقيادة كوادر محنكين.

لن يكون هناك أي انهيار تلقائي للرأسمالية، وكل أزمة ستجعل الأمور أسوأ بالنسبة لنا. وحده النضال الواعي للعمال على الصعيد الأممي وبناء قيادة ثورية، هو ما سيمكن من دق المسمار الأخير في نعش الرأسمالية. وهذا بالطبع لا يتطلب انقلابا أو مؤامرة، بل يتطلب بالأحرى حركة واعية لغالبية المجتمع، أي الطبقة العاملة. كلنا مختلفون ولا يمكننا أن نتوقع أن نستخلص نفس الاستنتاجات تلقائيا بين عشية وضحاها، والاستيقاظ في وقت واحد في صباح أحد الأيام والشروع في القيام بثورة. جميعنا نتعلم في أوقات مختلفة من خلال أحداث مختلفة. ويجب أن يكون هناك تيار ثوري لكي يوحد هؤلاء الناس ويقودهم إلى مهمة تغيير المجتمع.

الفرع الأمريكي للتيار الماركسي الأممي

10 يونيو/حزيران 2015

المؤتمر العالمي للتيار الماركسي الأممي 2021

قوى الماركسية تتقدم على الصعيد العالمي!



خلال الفترة ما بين 24 و27 يوليوز، اجتمع أكثر من 2800 ماركسي، ينتمون لأكثر من 50 بلدا حول العالم، عبر تقنية التواصل عن بعد، لحضور المؤتمر العالمي للتيار الماركسي الأممي. كان من المقرر أن ينعقد هذا المؤتمر في الأصل خلال عام 2020، لكن تم تأجيله بسبب تفشي جائحة كوفيد 19.

وعلى الرغم من أن الجائحة جعلت من المستحيل تنظيم المؤتمر بشكل حضوري، فإن بثه عبر الإنترنت مكّن الآلاف من الرفاق من المشاركة لأول مرة في مؤتمر التيار الماركسي الأممي. كان المؤتمر مليئا بالحماس والثقة. وخلال الأيام الأربعة ساد بيننا شعور بالارتباط الوثيق ببعضنا البعض، بكوننا منظمة ثورية أممية موحدة، على الرغم من المسافات التي تفرقنا.

وبينما يستيقظ الرفاق على الساحل الغربي للولايات المتحدة على الساعة الخامسة صباحا للمشاركة في المؤتمر، فإن الوقت يكون متأخرا بالنسبة للرفاق الذين يشاركون من إندونيسيا. حضر المؤتمر رفاق من: الأرجنتين وأستراليا والنمسا وبنغلاديش وبلجيكا وبوليفيا والبرازيل وبريطانيا وكندا وتشيلي والسلفادور وغواتيمالا وكوستاريكا وهندوراس وكولومبيا وتشيكوسلوفاكيا والدنمارك وهولندا وفرنسا وألمانيا وجورجيا واليونان وهايتي والمجر والهند وإندونيسيا وأيرلندا وإيطاليا وليبيريا وموريتانيا والمكسيك والمغرب وميانمار ونيبال ونيجيريا والنرويج وباكستان وبيرو وبولندا والبرتغال وروسيا وجنوب إفريقيا وإسبانيا وسريلانكا والسودان والسويد وسويسرا وتايوان والولايات المتحدة وفنزويلا ويوغوسلافيا.

وقد كانت مداخلة الرفيق قاسم، مندوب الفرع النيجيري للتيار الماركسي الأممي، لحظة مؤثرة بشكل خاص. إذ لحدود هذه اللحظة كانت إجراءات التأشيرة العنصرية تمنع المندوبين النيجيريين من المشاركة مباشرة في مؤتمرات التيار الماركسي الأممي. أما الآن، ولأول مرة، فقد كان في إمكان الأممية بأسرها أن تستمع بفخر لتقرير مباشر عن العمل الرائع لرفاقنا النيجيريين.

كان الحدث ثمرة لمجهود تنظيمي هائل، حيث عملت العديد من الفرق بجد خلف الكواليس للتأكد من أن كل شيء يسير دون عوائق. وبشكل خاص كانت فرق المترجمين هي التي عملت بجد لترجمة كل مداخلات المؤتمر إلى عشر لغات.

فكانت النتيجة نجاحا باهرا. ظهر الدليل عن المزاج السائد في المؤتمر عبر وسائل التواصل الاجتماعي تحت هاشتاج المؤتمر: #IMTCongress21. حيث تدفقت الصور من إدمونتون في كندا، إلى كراتشي في باكستان، ومن لينينغراد في روسيا، إلى مانشستر في بريطانيا، للحفلات التي نظمها الرفاق الذين اجتمعوا لمتابعة أشغاله في كل القارات وفي كل ركن من أركان المعمورة.

العالم انقلب رأسا على عقب

تم التحضير للمؤتمر بنقاشات غنية وحيوية على مستوى سياسي عال لا يمكن العثور عليه في أي منظمة أخرى.

افتتح آلان وودز المؤتمر بإعطاء صورة بانورامية عن الأزمة التاريخية -أسوء أزمة عرفها العالم منذ 300 عام- التي تكشفت خلال العام ونصف العام الماضيين. وعلى الرغم من أن جائحة كورونا لم تكن سبب الأزمة -التي كانت تختمر منذ عقود- فإن الأزمة والجائحة صارا الآن مرتبطان ببعضهما البعض بشكل لا ينفصم.

ليست هذه هي المرة الأولى التي ينفضح فيها تعفن نظام اجتماعي بفعل حدث غير متوقع مثل الجائحة. ومن خلال الاستشهاد بما يكتبه منظرو الطبقة السائدة، أظهر آلان كيف أن الرأسماليين يدركون تماما العواقب التي تخبئها لهم الأزمة. ومع ذلك فإن الطبقة الرأسمالية، مثلها تماما مثل ماري أنطوانيت والأرستقراطية الفرنسية قبل الثورة الفرنسية الكبرى، تستمر اليوم في الاستمتاع ببذخها الفاحش على الرغم من المعاناة الفظيعة التي يعانيها أغلب البشر.

وبينما تبقى جثث ضحايا هذه الجائحة مرمية في شوارع المدن الهندية، يشهد أثرياء العالم ارتفاع ثروتهم بما قدره 05 تريليونات دولار منذ عام 2020. وفي حين ينهار عمال أمازون من الإرهاق في مستودعات جيف بيزوس، يقوم رب عملهم بالسفر إلى حافة الفضاء ليصبح أول "سائح فضاء" في العالم. وكما أوضح آلان فإن كل هذه الأعمال المشينة لن تمر دون أن يلاحظها أحد. لقد فضحت الجائحة تعفن وفساد وعدم كفاءة الطبقة السائدة، الحائرة في كيفية إنهاء الكابوس. لقد خلقت غضبا عميقا ومشتعلا يختمر في قلوب مئات الملايين من الناس. لكن وكما أوضح آلان، فإن الثورة وحدها هي التي ستكنس نظامهم من على وجه الأرض. ولأجل ذلك تحتاج الطبقة العاملة لحزب ثوري يقوم على أساس الأفكار الواضحة للماركسية.



مزاج من الغضب الثوري يختمر

لقد حُرثت أرض الثورة بشكل كامل، وبدأت بذورها تتفتح بالفعل. في عام 2019 شهدنا تطورات ثورية في الإكوادور وتشيلي والعراق ولبنان وأماكن أخرى. وشهدنا هذا العام تطورات جديدة في تشيلي وإضرابا وطنيا تاريخيا في كولومبيا واندلاع الحركة المناهضة لبولسونارو في البرازيل -والتي كانت ما تزال مستمرة خلال وقت انعقاد المؤتمر- وانتخاب مناضل نقابي رئيسا لبيرو وحركة تمرد للمزارعين الهنود وحركة قوية ضد الجنرالات في ميانمار واستيلاء اليسار على قيادة أكبر نقابة عمالية في بريطانيا، والعديد من الأحداث الواعدة الأخرى.

كل هذه الأحداث المختلفة هي أعراض لنفس سيرورة اليقظة الثورية. وبالنظر إلى مزاج الغضب السائد في المجتمع، يمكن ولو لانتعاش هش ومؤقت أن يعطي دفعة كبيرة لنضالات عمالية جديدة، ستهز الحركة العمالية.

وبعد مقدمة آلان، قدم الرفاق تقارير من جميع أنحاء العالم، وتطرقوا إلى مجموعة من القضايا النابعة من الأزمة الحالية: من هزيمة الإمبريالية الأمريكية في أفغانستان، إلى انهيار الاشتراكيين الديمقراطيين الإسكندنافيين، إلى دور النقابات العمالية، وكيف يمكن للماركسيين أن يدافعوا عن مكاسب الثورة الكوبية.

استمتع المؤتمرون بمناقشة واسعة وحيوية للمنظورات العالمية أوضحت لجميع الرفاق مهام عصرنا وفرص بناء تيار ماركسي قادر على التدخل بشكل حاسم في مسار هذه الأحداث العظيمة.

دفاعا عن النظرية الثورية

لكن لبناء تيار ماركسي يمكنه أن يسعى إلى قيادة الحركة العمالية في جميع أنحاء العالم، يجب علينا أن نبني منظمة قائمة على أفكار واضحة وآلاف الكوادر الماركسية المنضبطة والتي استوعبت تلك الأفكار والأساليب.

وقد لخص شعار المؤتمر: "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية"، المأخوذ من تحفة لينين: ما العمل؟، المهمة المركزية للمؤتمر. ولهذه الغاية خصص المؤتمر جلسة خاصة حول "النضال من أجل الفلسفة الماركسية".

افتتح الجلسة فريد ويستون من السكرتارية الأممية للتيار الماركسي الأممي.

قال إن الطبقة السائدة اليوم، مثلها مثل الملك كانوت الذي حاول كبح المد، تحاول كبح الصراع الطبقي من خلال نشر كل أنواع الارتباك والأفكار الخاطئة. هذا هو الهدف الرئيسي للفلسفة البرجوازية اليوم. لكن، كما أوضح فريد، كل جهودهم سوف تذهب سدى في النهاية.

بينما الأفكار الماركسية، على العكس من ذلك، تستمد قوتها من حقيقة أنها **صحيحة**، وبالضبط لأنها تقدم تفسيرا للواقع وطريقا للخروج من الأزمة



فقد تمكن التيار الماركسي الأممي، بفضل تبنيه لموقف جدي تجاه النظرية، من تحقيق الإنجازات التي أحرزها خلال السنوات الأخيرة.

أشار فريد إلى أن جميع المنظمات الأخرى التي تطلق على نفسها اسم "يسار" تميل إلى ازدراء النظرية، حيث تعتبرها ربما كما لو أنها مجرد ترف، أو تسلية عقيمة يمارسها "المنظرون" من مقاعدهم الوثيرة. لكن النظرية الثورية في الواقع ليست عقيمة عندما تقترن بالعمل الثوري. وبالاستشهاد بكلمات ماركس، من عام 1843، أوضح فريد أن:

«سلاح النقد لا يمكن، بالطبع، أن يحل محل نقد السلاح، فالقوة المادية لا يمكن الإطاحة بها إلا بالقوة المادية، إلا أن النظرية تصير هي أيضا قوة مادية حين تستحوذ على الجماهير».

الماركسية هي في المقام الأول نظرة فلسفية: فلسفة المادية الديالكتيكية، كما وصفها فريد. لكن هذه الفلسفة نفسها لم تسقط من السماء. إنها أسمى نتاج لآلاف السنين من التطور البشري وتطور الفكر والفلسفة.

خلال المؤتمر تم الإعلان عن أن التيار الماركسي الأممي سينشر كتابا هذا الخريف، من تأليف آلان وودز، بعنوان: **تاريخ الفلسفة**، والذي يتتبع بنظرة علمية واضحة تطور الفلسفة وصولا إلى ماركس وإنجلز.

وسيمهد هذا الكتاب بدوره الطريق لكتاب آخر يكتبه آلان حاليا عن فلسفة الماركسية نفسها. وبمجرد نشر هذين الكتابين سيشكلان أسلحة جبارة في ترسانة الجيل الجديد من الثوار.

إن منشورات التيار الماركسي الأممي النظرية، أبعد ما تكون عن "نظرية جافة" لا تهم الشباب كثيرا، إذ تتلقاها بتعطش فئات متنامية من العمال والشباب الثوريين الذين ينضمون إلى صفوفنا. تم إعطاء الدليل عن هذا التعطش للنظرية من خلال أرقام مبيعات دار الناشر WellRed التابعة للتيار الماركسي الأممي. فخلال الأشهر الاثنا عشر الماضية

وحدها، ارتفعت مبيعات الكتب بأكثر من الضعف، حيث تم بيع أكثر من 10300 كتابا في عام 2020، وهو إنجاز حققته مكتبات أخرى تابعة لمختلف فروع التيار الماركسي الأممي في جميع أنحاء العالم.

كما انعكس هذا التعطش للنظرية أيضا في الحماس الهائل الذي تم به تلقي مجلة "**الدفاع عن الماركسية**"، التي أعيد إصدارها مؤخرا كمجلة نظرية أممية فصلية. وقد تمت طباعة 6000 نسخة حتى الآن باللغات الإنجليزية والألمانية والإسبانية والسويدية، وستأتي ترجمات أخرى بالإندونيسية والبرتغالية وغيرها من اللغات.

يمثل هذا المؤتمر نقطة انطلاق في حملة مستمرة من قبل التيار الماركسي الأممي لمحاربة الهراء الصوفي والمثالي الذي يتم تمريره على أنه ‹فلسفة› في المجتمع البرجوازي اليوم، وهي حملة مستمرة ستتواصل لسنوات قادمة وستضع حجر الأساس لبناء تيار ماركسي قوي.

بناء المنظمة الثورية

بعد الجلسة حول النظرية الماركسية، انتقل الرفاق لنقاش الخطوات التي تم إحرازها في جميع أنحاء العالم في مسار بناء التيار الماركسي الأممي. لقد نما التيار الماركسي الأممي على المستوى العالمي بنسبة 43٪ منذ بداية عام 2020 وحده. وفي بعض الفروع، مثل الفرع الأمريكي، حققنا نموا يصل إلى 87٪؛ أما في إندونيسيا، ففي نفس الفترة نما الفرع بنسبة تصل إلى 150٪!

وعلى الرغم من حضور رفاق من أكثر من 50 بلدا، فإن التيار الماركسي الأممي قد اعترف بفروع ومجموعات في 32 من تلك البلدان. إلا أننا نعمل في كل الأماكن التي لدينا فيها علاقات مع رفاق أفراد على إنشاء مجموعات جديدة، وفي الأماكن التي لدينا فيها مجموعات نعمل على بناء أسس ثابتة لفروع جديدة. وفي هذا السياق تم قبول طلبي انتساب من فرعين جديدين -من يوغوسلافيا وبولندا- بقرار حماسي وبالإجماع من طرف المؤتمرين. وفي أكثر من اثنتي عشرة بلدا أخرى حيث يتم تأسيس مجموعات لأنصار التيار الماركسي الأممي، يتم وضع الأساس بلا شك لبناء فروع جديدة ومهمة في المستقبل غير البعيد.

وربما كان أفضل تعبير عن الرغبة في بناء تيار ماركسية قوي قادر على تغيير مجرى التاريخ هو الاستجابة المذهلة للنداء المالي للمؤتمر.

خلال مناشدته للرفاق بالتبرع بسخاء، وصف جون بيترسون الآفاق التي تنفتح لبناء قوة ماركسية في بطن الوحش نفسه [الولايات المتحدة]. فعلى مدار عامين، شهد عدد الأشخاص الذين يكتبون إلى الموقع الالكتروني الخاص بالفرع الأمريكي للتيار الماركسي الأممي، من أجل طلب الانضمام إلينا، ارتفاعا بثلاثة إلى أربعة أضعاف. وقد انعكس النمو العددي الذي حققه رفاقنا الأمريكيون وحماسهم، في



مضاعفة مساهمتهم المالية.

بعده تحدث آدم بال، من الفرع الباكستاني للتيار الماركسي الأممي، الذي قدم دعوة حماسية باسم الأممية لجميع الرفاق من أجل تقديم كل ما في وسعهم. خلال السنوات القليلة الماضية ساعد رفاق التيار الماركسي الأممي من جميع أنحاء العالم في ضمان إطلاق سراح الرفاق المعتقلين في باكستان، وهو ما يدل على قوة التضامن الأممي.

بالنسبة للرفاق في باكستان، فإن المعاناة والألم الذي تسببه هذه الأزمة للملايين في جميع أنحاء البلدان الرأسمالية "المتخلفة" يعني أن التبرع لبناء الأممية قد يعني ضرورة التخلي عن وجبة أو رسوم التعليم أو مبلغ لشراء أدوية مهمة. ومع ذلك، كما أوضح آدم، فإن انتصار الاشتراكية في شبه القارة الهندية هو مسألة حياة أو موت بالنسبة للملايين، ولذا فإن المئات من الرفاق هم على استعداد لتقديم مثل هذه التضحيات على وجه التحديد.

وبهذه الروح من التضحية الشخصية، وصل المبلغ المحصل عليها من التبرعات رقما مذهلا تجاوز 370 ألف جنيه استرليني - بزيادة قدرها أكثر من 130 ألف جنيه على إجمالي المبلغ الذي كان قد تم جمعه خلال الجامعة العالمية التي نظمها التيار الماركسي الأممي قبل عام واحد فقط.

في كل أنحاء العالم، وبينما تغرق جميع التيارات الأخرى في الأزمة وتنضح بالتشاؤم، يتقدم التيار الماركسي الأممي، واثقا من المستقبل ومتفانيا بحزم في النضال من أجل الثورة الاشتراكية.

إن الرهانات جسيمة، كما أوضح آلان وودز في ملاحظاته الختامية أمام المؤتمر، حيث قال:

«ما هو الهدف الحقيقي للثورة الاشتراكية؟ لا يتعلق الأمر فقط بالحصول على ظروف معيشية أفضل. إنه أكثر أهمية من ذلك بكثير. إنه تحقيق ما كان دائما مجرد إمكانية. سيتم فتح كتاب الثقافة العظيم لكل رجل وامرأة لقراءته. إننا نتحدث عن قفزة البشرية من عالم الضرورة إلى عالم الحرية الحقيقية. هذا هو ما نناضل من أجله. إنه الهدف الوحيد الذي يستحق النضال من أجله والتضحية من أجله في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ البشرية».

فيلم "الموريتاني": عرض مصور للإمبريالية الأمريكية

يروي فيلم "الموريتاني"، المرشح لجائزة بافتا وغولدن غلوب، القصة الحقيقية لمحمدو ولد صلاحي، الذي سُجن في خليج غوانتانامو لمدة 14 عاما دون تهمة. الفيلم، الذي أخرج استنادا إلى الكتاب الأكثر مبيعا "مذكرات غوانتانامو"، يحكي عرضا مصورا عن وحشية الإمبريالية الأمريكية، والأعمال الانتقامية التي نفذتها في أعقاب هجمات 11 شتنبر.

أسرار شريرة

يبدأ الفيلم بجو بهيج لحفل زفاف أمازيغي تقليدي، حيث يقوم ضباط عسكريون موريتانيون بالاتصال بمحمدو لاستجوابه. بقيت والدته جانبا تنتظر بفارغ الصبر بينما يدعوه المسؤول لإجراء مقابلة "طوعية" مع الأمريكيين. وفي المرة التالية التي نراه فيها، نجده محبوسا في زنزانة في غوانتانامو.

يطلق هذه دراما قانونية تقوم فيها نانسي هولاندر (التي تلعب دورها الممثلة جودي فوستر)، وهي محامية ناجحة في مجال حقوق الإنسان، والكولونيل ستيوارت كوتش (الذي يلعب دوره الممثل بنديكت كومبرباتش)، نيابة عن الادعاء، بالمرور معا في أروقة الممارسة العسكرية الأمريكية الغامضة.

كان كوتش في البداية يتحرك بدافع التعطش إلى تطبيق "العدالة القاسية"، بعد أن سمع أن محمدو قد "جند" الرجل الذي اختطف طائرة الرحلة 175 وهاجم بها البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي. لقد تم اختياره لهذه المهمة بشكل مقصود لأن صديقا مقربا لعائلته كان الضابط الأول على متن تلك الرحلة.

تحافظ المراحل الأولى من الفيلم على توازن دقيق فيما يتعلق بمسألة تورط أو براءة بطل الرواية. كان محمدو قد تلقى تدريبا كمقاتل في حرب العصابات في صفوف تنظيم القاعدة، عامي 1990 و1992، لكن ذلك كان خلال الحرب بين الأفغان والروس. وكان كما يشير هو، يقاتل في نفس جانب الأمريكيين في ذلك الوقت. يجب أن نضيف هنا أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كانت في ذلك الوقت تمول هي أيضا تنظيم القاعدة.

يوضح الفيلم ببراعة السيطرة الشريرة التي تمارسها وكالة المخابرات المركزية، وغيرها من الوزارات الأخرى، على المعلومات، حيث يحاول كلا المحامين بيأس الوصول إلى حقيقة القضية.

قد تذهب توقعاتنا أن هولاندر -التي تعمل من أجل الدفاع- ستضطر إلى أن تواجه هذه العقبات وحدها. لكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. إذ من الواضح أن جوهر هذا التحقيق يكمن في سر غامض للغاية لدرجة أنه لا يُسمح حتى للمدعي العسكري للجيش بالاقتراب منه.

جهنم فوق الأرض

طوال الفيلم، تقوم هولاندر وشريكتها تيري دنكان بزيارة محمدو بانتظام في غوانتانامو. يتضمن هذا مشهدا سرياليا، حيث يتناقض جمال الساحل الاستوائي مع الجحيم الذي يواجهه المعتقلون داخل جدران المنشأة.

المراقبة في غوانتانامو شديدة القمع لدرجة أن أي معلومات حساسة يريد محمدو نقلها، يجب عليه تدوينها على شكل خطاب قبل إرسالها إلى منشأة أمنية فدرالية في فيرجينيا لتقرأها هولاندر ودانكان. من الأحداث الرئيسية في الفيلم هناك البحث عن سجلات غوانتانامو التي تحتوي على الطبيعة الحقيقية لاستجواب محمدو على يد المخابرات العسكرية. يُمنع على المحامين من كلا الجانبين الوصول إلى تلك السجلات، إلى أن خضعت وكالة المخابرات المركزية تحت الضغط وأفرجت عن الملفات.

ما نراه بعد ذلك مشاهد مروعة حقا للإكراه والتعذيب. نسمع أن دونالد رامسفيلد قد وقع على استخدام "إجراءات خاصة"، مما يثبت وجود خط مباشر يربط بين الحكومة وبين الأعمال الوحشية التي تم تنفيذها.

الضرب والتعرض لضوضاء تصم الآذان والإذلال الجنسي والحرمان من النوم والتغذية القسرية والإيهام بالغرق... كل هذه الإجراءات ليست سوى جزء من الأساليب اللاإنسانية المستخدمة ضد المتهمين بالإرهاب.

بل إنهم يهددون بنقل والدة محمدو إلى غوانتانامو ليتم اغتصابها من قبل زملائهم الآخرين. كانت هذه الاكتشافات مرعبة للغاية لدرجة أنها دفعت كوتش إلى الاستقالة من فريق الادعاء، حيث أصيب هو وهولاندر بالذهول من مستوى الوحشية.

نظام فاسد

«في البلد الذي أنحدر منه نعلم أنه علينا ألا نثق في الشرطة، نحن نعلم أن القانون فاسد وأن الحكومة تستخدم الخوف للسيطرة علينا»، هكذا يشهد محمدو عندما تصل قضيته أخيرا إلى المحكمة.

يقول إنه أثناء نشأته، هو "وكثير من الناس حول العالم" كانوا يعتقدون أن أمريكا مختلفة؛ وأن القانون هناك يستخدم "لحماية الناس". إنه يتعلم بالطريقة الصعبة أن هذا ليس الواقع.

ما يتبين لنا هو أن الدولة ومؤسساتها، في ظل الرأسمالية، مجرد سلاح في يد طبقة ضد أخرى. ربما يكون الجانب الأكثر إثارة للصدمة في الفيلم هو أنه حتى بعد كسب محمدو لقضيته باعتبار احتجازه غير قانوني، فقد ظل محتجزا في السجن لمدة سبع سنوات أخرى بعد أن استأنفت إدارة أوباما/بايدن الحكم. هذا هو الوجه الحقيقي للرجل الذي تم انتخابه مؤخرا رئيسا للولايات المتحدة.

لا عدالة

يقدم لنا هذا الفيلم العديد من الرجال والنساء الشجعان الذين ناضلوا بأسنانهم وأظافرهم من أجل إطلاق سراح محمدو صلاحي في النهاية، في أكتوبر 2016؛ ومن بينهم محمدو نفسه، الذي يظهر في الفيلم على أنه رجل ودود وذكي، وذو عزيمة حديدية. لكن الدرس الحقيقي المستخلص من هذا الفيلم ليس هو الإيمان بـ"المثول أمام المحكمة"، أو حتى في محاميي حقوق الإنسان مثل نانسي هولاندر. إذا كان هناك من شيء فهو أن حقيقة اعتقال شخص في السجن لمدة 14 عاما دون أي دليل، يثبت بالنسبة للعمال في جميع أنحاء العالم أن نظام العدالة الجنائية ليس أداة لخدمتهم.

هناك الآلاف من السجناء السياسيين الذين لم يحصلوا أبدا على أي تمثيل قانوني والذين تعفنوا في الزنازين، أو ما هو أسوأ من ذلك.

وكما قال هونور دي بلزاك: «القوانين شباك عنكبوت، يجتازها الذباب الكبير ويعلق فيها الذباب الصغير».

جميع عمال العالم، إذا ما هم بقوا معزولين، يقفون عاجزين أمام الدولة وأجهزتها؛ وسوف يعلقون في شبكات نظامهم السياسي والقضائي المخصص لحماية مصالح الطبقة السائدة.

القمع والثورة

إن القوة الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه الدولة الرأسمالية وإسقاطها هي الطبقة العاملة الموحدة والمنظمة والمعبأة، والمسلحة ببرنامج ثوري لتغيير المجتمع.

في مارس من هذا العام، أفادت الأنباء أنه تم الإفراج عن أكثر من 600 سجين سياسي في ميانمار بعد احتجاجات حاشدة اجتاحت البلاد وأسابيع من الإضرابات العامة.

وبالمثل في فرنسا عام 1789، نجح اقتحام سجن الباستيل في إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، الذين كانوا معتقلين هناك "بناءً على رغبة الملك". خلال الثورة نرى الإمكانيات الحقيقية التي يمتلكها العمال لتغيير ميزان القوى الطبقي وحماية أفراد طبقتهم. وتعتبر حملات التضامن الأممية جزءا مهما من هذه المعركة، كما سبق لنا أن رأينا في حملة التضامن مع رفاقنا في باكستان.

الأداء الرائع، ولا سيما من جانب طاهر رحيم وجودي فوستر، يجعل هذا الفيلم ممتعا للغاية. إنه عمل عميق، وينبغي أن يكون بمثابة تذكير بما يحدث عندما تُترك السلطة في أيدي الرأسماليين والإمبرياليين وجهاز دولتهم.

بات ماكدونالد
20 أبريل 2021

التيار الماركسي الأممي

IMT

الحرية والشيوعية

